التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٦)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الرابع

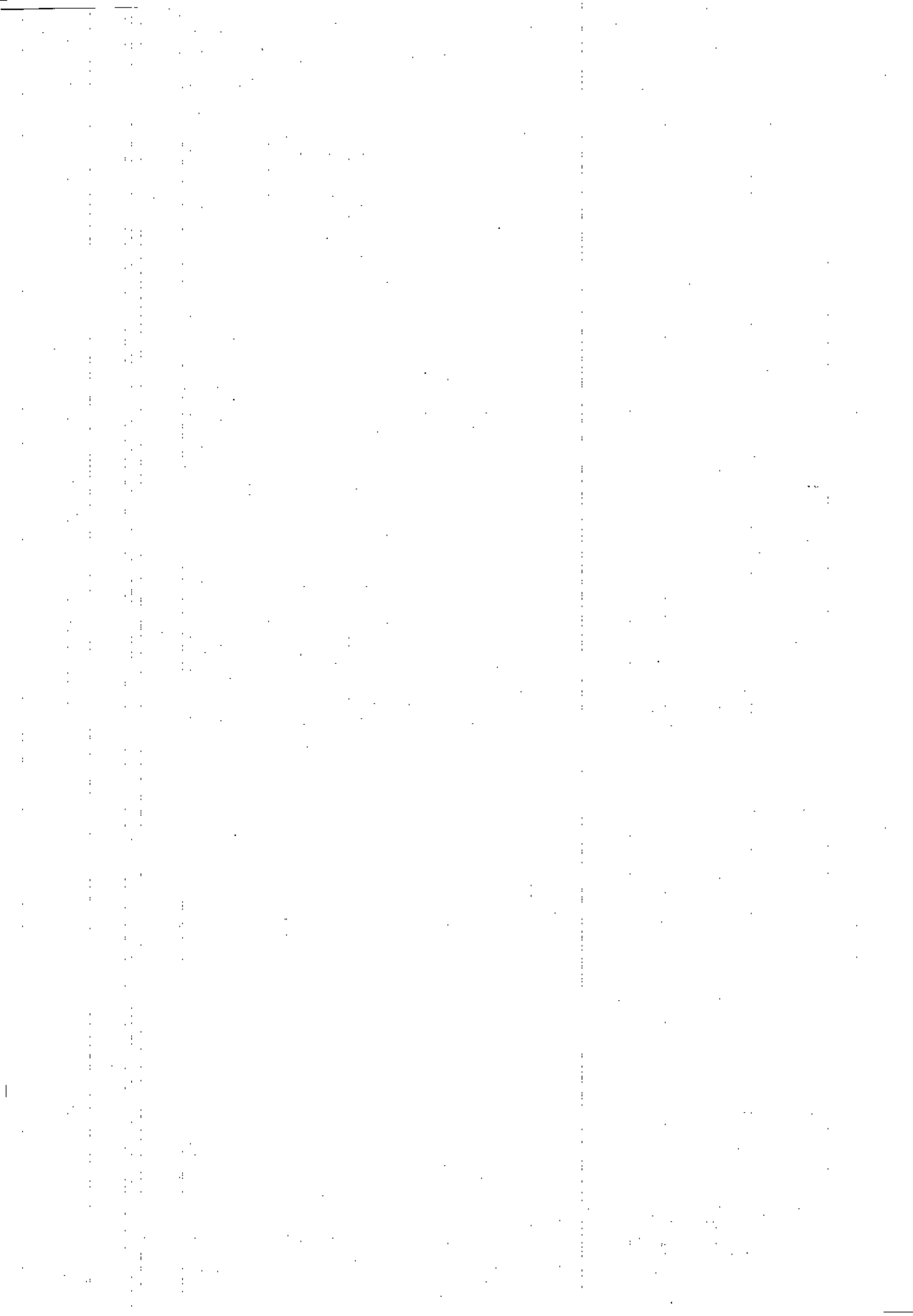
دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

الخوارج

ومواقف أئمة المسلمين

وقادتهم منهم

لم يكن من منهجي في هذا الكتاب التعرض للحروب التي ثارت بين المسلمين ، لأن ذلك يسيء إلى سمعة هؤلاء المتحاربين، والمقصود من هذا الكتاب هو إبراز مواقف المسلمين ، وتجلية العبر في تاريخهم، ولكني رأيت أخيراً أهمية الحديث عن مواقف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في معاملة الخوارج ، لأن النبي ﷺ ذكرهم وذمهم ووعد من قاتلهم بالأجر العظيم، كما سيأتي في ذكر قتالهم مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ولذلك كان قتالهم يحوز على ثناء علماء المسلمين ، فالحديث عن القتال معهم يعتبر إدانة لهم وإشادة بمن قاتلهم .

- الخوارج وماورد فيهم من أحاديث -

الخوارج هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه (١).

وبداية وجودهم في عهد رسول الله ﷺ، وذلك حينما اعترض عليه أحدهم في قسمة الغنائم يوم حنين، وقد أخرج خبر ذلك الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخُوَيصرة التميمي فقال: اعدل يارسول الله، فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه. قال: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلايوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلايوجد فيه شيء، ثم ينظر نضيَّه فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَقَ الفرثَ والدم. آيتهم رجلٌ إحدى يديه - أو قال ثدييه - مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة تدردرُ. يخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: أشهدُ سمعتُ من النبي ﷺ، وأشهدُ أن عليًا قَتَلَهم وأنا معه، جيء بالرجل عَلَى النعتِ الذي نعته النبيُّ ﷺ (٢).

وقوله « كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة » معناه أن خروجهم من

---

(١) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ١/ ١٥٥.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٦٩٣٣، كتاب استتابة المرتدين ١٢/ ٢٩٠ صحيح مسلم، رقم ١٠٦٤، كتاب الزكاة ص ٧٤٤.

الإسلام يتم بسرعة كخروج السـهم من الصيد المرمي بقوة وسرعة من قوة الرمي .

وقوله « ينظر في قُذذه » هي ريش السهم.

وقوله « ثم ينظر إلى نصله » يعني حديدة السهم .

وقـوله « ثم ينـظر إلى رصـافـه » يعني إلى مـدخـل النصل من السهم.

وقوله « ثم ينظر إلى نَضِيِّه » هو السهم بلانصل ولاريش .

وقوله « سبق الفرث والدم » أي أن السهم جاوزهما ولم يعلق فيه منهما شيء .

والمقصود هو التعبير عن سرعة خروج الخوارج من الإسلام بتشبيه ذلك بسرعة خـروج السهم من الصيد المرمي بحـيث لايعلق بأي جزء من أجزائه شيء منه .

وفي حديث آخر أخرجه الشيخان أن النبي ﷺ قال في وصفهم: « يقرؤون القـرآن لايجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسـلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمِيَّة ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » (١) .

وفي رواية لمسلم « يتلون كتاب الله ليِّنًا رطبا » (٢) .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ / ١٤٣ ، الزكاة (ص ٧٤١ - ٧٤٢) .
صحيح البخاري ، رقم ٣٣٤٤ ، الأنبياء (٦/٣٧٦) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤/١٤٥ ، الزكاة (ص ٧٤٣) .

وجاء في حديث آخر أخرجه الشيخان « سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لايجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة »[1].

وجاء في رواية لمسلم « يخرجون في فُرقة من الناس، سيماهم التحالق ، هم شر الخلق - أو من أشر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وفي رواية أخرى لمسلم « يَتيهُ قوم قِبَل المشرق، مُحلَّقة رؤوسهم»[2] .

ففي هذه الأحاديث بيان شيء من صفات الخوارج ، فمن ذلك أنهم يشتهرون بكثرة التعبد بالشعائر التعبدية كالصلاة والصيام، وأن الصحابة رضي الله عنهم على كثرة تعبدهم يحقرون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم .

ومنها أنهم من قراء كتاب الله تعالى وأنهم يحسنون أداءه، ويحسنون أصواتهم به ، ولكنهم لايتأثرون به في قلوبهم ولايؤثر على سلوكهم .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٣٠ ، ٦٩٣٤ ، كتاب استتابة المرتدين (١٢/ ٢٨٣، ٢٩٠) .

صحيح مسلم رقم ١٠٦٦/ ١٥٤ ، الزكاة ، (ص ٧٤٦ - ٧٤٧) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة رقم ١٤٩ ، ١٦٠ (ص٧٤٥ ، ٧٥٠) .

ومنها أنهم من صغار السن وأنهم سفهاء العقول لايفكرون تفكيراً سليما .

ومنها أنهم ينطقون بالكلام الحسن الذي يجذب انتباه الناس ولكنهم يسيئون الأفعال، وذلك من قول رسول الله ﷺ عنهم «يقولون من خير قول البرية »قال الحافظ ابن حجر: تقدم قول من قال إنه مقلوب وأن المراد من قول خير البرية وهو القرآن، قال قلت: ويحتمل أن يكون على ظاهره»والمراد القول الحسن في الظاهر وباطنه على خلاف ذلك، كقولهم «لاحكم إلا لله»، قال: وفي حديث أنس عن أبي سعيد عند أبي داود والطبراني«يحسنون القول ويسيئون الفعل»[1].

ومنها أنهم يكثرون من الأقوال التي ظاهرها الإيمان ، ولكن قلوبهم بخلاف ذلك « لايجاوز إيمانهم حناجرهم » .

ومنها أنهم يحلقون رؤوسهم على الدوام على خلاف المعتاد من حياة الناس في ذلك الزمن .

ومنها أنهم يعاملون من خالفهم من المسلمين بعنف وقسوة، ويستحلون دماءهم وأموالهم ، بينما يعاملون الكفار من أهل الذمة بلين ولطف ، ويتورعون عن دمائهم وأموالهم .

مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج :

كان أول ظهور الخوارج بشكل جماعي في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك بعد معركة صفين حينما دعا أصحاب معاوية رضي الله عنه إلى إيقاف القتال والتحاكم إلى

---

(١) فتح الباري ٢/ ٢٨٧ .

كتاب الله تعالى ، فكَرِهَ ذلك علي رضي الله عنه لأنه كان قد أوشك على النصر وقَبِل ذلك فرقة من جيشه وألزموه بإيقاف القتال وقبول التحكيم ، ثم إن طائفة من هؤلاء غيروا رأيهم واعتبروا أن التحكيم كفر وأنَّ من قبل ذلك فقد كفر ، ثم أظهروا توبتهم من ذلك الكفر ورفضوا قبول التحكيم ، وخرجوا على علي رضي الله عنه .

وقد وردت في ذلك أخبار منها ماأخرجه المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الإمام الشعبي قال: لما اجتمع علي ومعاوية على أن يُحكِّما رجلين اختلف الناس على علي فكان عُظمهم وجمهورهم مقرين بالتحكيم راضين به، وكانت فرقة منهم - وهم زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعبَّاد منهم - منكرة للحكومة ، وكانت فرقة منهم وهم قليل متوقفين، فأتت الفرقة المنكرة عليّا فقالوا: عد إلى الحرب - وكان علي يحبّ ذلك - فقال الذين رضوا بالتحكيم: والله مادعانا القوم إلا إلى حق وإنصاف وعدل، وكان الأشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا إلى الحرب، فقال علي للذين دعوا إلى الحرب : ياقوم قد ترون خلاف أصحابكم وأنت قليل في كثير ، ولئن عُدتم إلى الحرب ليكوننّ أشدّ عليكم من أهل الشام، فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنوكم ، والله مارضيت ماكان ولاهويته، ولكني ملت إلى الجمهور منكم خوفًا عليكم . ثم أنشد :

وماأنا إلا من غُزَيَّةَ إن غَوَتْ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففارقوه ومضى بعضهم إلى الكوفة قبل كتاب القضية، و أقام الباقون معه على إنكارهم التحكيم ناقمين عليه يقولون : لعلّه يتوب

ويراجع ، فلما كُتبت القضية [1] خرج بها الأشعث فقال عروة بن حُدير: ياأشعث ماهذه الدنية ؟ أشرط أوثق من شرط الله ؟ واعترضه بسيف فضرب عجز بغلته وحكّم [2] فغضب للأشعث أهل اليمن حتى مشى الأحنف ، وجارية بن قدامة ، ومعقل بن قيس ، وشبث بن ربعي ، ووجوه تميم إليهم فرضوا وصفحوا [3] .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال: لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين خاصمته الحرورية ستة أشهر وقالوا: شككت في أمرك وحكّمت عدوك ووهنت في الجهاد، وتأولوا عليه القرآن فقالوا : قال الله : ﴿ **وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** ﴾[4] الآية : وطالت خصومتهم لعلي ، ثم زالوا براياتهم وهم خمسة آلاف عليهم ابن الكواء ، فأرسل إليهم علي عبد الله بن عباس وصعصعة بن صوحان فدعواهم إلى الجماعة وناشداهم فأبوا عليهما ، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطلح، وقال لهم : أبرزوا منكم اثني عشر نقيبًا ، وأبعث منا مثلهم ونجتمع بمكان كذا فيقوم خطباؤنا بحججنا وخطباؤكم بحججكم. ففعلوا ورجعوا فقام علي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإني لم أكن أحرصكم على هذه القضية وعلى التحكيم ولكنكم وهنتم في القتال، وتفرقتم عليَّ وخاصمني القوم بالقرآن

(١) أي قضية الصلح بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بتحكيم الحكمين .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا لله .

(٣) أنساب الأشراف ٣/ ١١٢ .

(٤) سورة غافر الآية (٢٠) .

ودعَوْنا إليه، فخشيت إن أبيت الذي دعوا إليه من القرآن والحكم، أن يتأولوا عليَّ قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] الآية: ويتأولوا قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[2] ويتأولوا قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[3] الآية فلم آب عليهم التحاكم، وخشيت أن تقولوا: فرض الله في كتابه الحكومة في أصغر الأمر فكيف الأمر الذي فيه سفك الدماء، وقطع الأرحام وانتهاك الحريم ، وخفت وهنكم وتفرقكم .

ثم قامت خطباء الحرورية ، فقالوا: دعوتنا إلى كتاب الله والعمل به فأجبناك وبايعناك وقد قُتِلَتْ في طاعتك قتلانا يوم الجمل وصفين، ثمّ شككت في أمر الله وحكّمت عدوك ، ونحن على أمرك الذي تركت ، وأنت اليوم على غيره، فلسنا منك إلا أن تتوب منه وتشهد على نفسك بالضلالة . فلما فرغوا من قولهم : قال علي :

أما أن أشهد على نفسي بالضلالة فمعاذ الله أن أكون ارتبت منذ

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٣) .

(٢) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٣) سورة النساء الآية (٣٥) .

أسلمت، أو ضللت منذ اهتديت، بل بنا هداكم الله من الضلالة، واستنقذكم من الكفر، وعصمكم من الجهالة، وإنما حكَّمت الحكمين بكتاب الله والسنة الجامعة غير المفرقة ، فإن حكما بكتاب الله كنت أولى بالأمر في حكمهما ، وإن حكما بغير ذلك لم يكن لهما علي وعليكم حكم.

ثم تفرقوا فأعاد إليهم عبد الله بن عباس وصعصعة فقال لهم صعصعة : أذكِّركم الله أن تجعلوا فتنة العام مخافة فتنة عام قابل، فقال ابن الكواء : ألستم تعلمون أني دعوتكم إلى هذا الأمر؟ فقالوا: بلى . قال : فإني أول من أطاع هذا الرجل فإنه واعظ شفيق. فخرج معه منهم نحو من خمسمائة فدخلوا في جملة علي وجماعته، وبقي منهم نحو من خمسة آلاف رجل فقال عليّ : اتركوهم حتى يأخذوا ، ويسفكوا دمًا حراما ففعل ذلك .

وأخرج أيضا من خبر الصلت بن بهرام قال: لما قدم عليٌّ الكوفة من صفين جعل يخطب الناس وجعلت الخوارج تقول - وهو على المنبر -: قَبِلتَ الدنيَّة بالقضيَّة [1]، وجزعت عن البلية لاحكم إلا لله. فيقول : حكم الله انتظر فيكم. فيقولون : ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[2]، فيقول علي: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ [3].

---

(١) يعني حينما رضيتَ بالتحكيم .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٥) .

(٣) سور الروم (٦٠) .

وأخرج أيضا من خبـر الإمام الزهري قال: أنكرت الحكومة على عليّ طائفة من أصـحابه قدمت إلى بلدانها من صـفين، وانحاز منهم اثنا عـشر ألفًـا - ويقال سـتة آلاف - إلى مـوضع يقال له: حـروراء بناحيـة الكوفة فـبعث إليهم علي ابن عـباس وصعـصعـة ، فوعظهم صعصعة . وحاجهم ابن عباس فرجع منهم ألفان وبقي الآخرون على حالهم حينًا ، ثم دخلوا الكوفة ، فلمـا انقضت المدة في القضية وأراد علي توجيه أبي موسى أتاه حرقوص بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي في جماعة من الحرورية ، فقالوا: اتق الله وسـر إلى عدوك وعـدونا ، وتب إلى الله من الخطيئـة ، وارجع عن القضية ، فقال علي : أما عدوكم فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم فـتـواكلتم ووهنـتم وأصـابكم ألم الجـراح فـجـزعـتم وعصيتموني، وأما القضية فليست بذنب ولكنها تقصير وعجز أتيتموه وأنا له كاره، وأنا استغفـر الله من كل ذنب . فقـال له زرعة: والله لئن لم تدع التحكيم في أمـر الله لأجاهدنك ، فقـال له علي: بؤسًا لك ماأشقاك ، كأني أنظر إليك غدًا صريعًا تسفي عليك الرياح، قال: وددتُ ذلك قد كان ، فانصرفوا وهم يظهرون التحكيم [1] ويدخلون الكوفـة، فإذا صلى علي وخطب حكّمـوا ، فيـقول علي: كلمـة الحق يُعتزى بها باطل .

وبلغ يزيد بن عاصم المحـاربي قول علي لزرعة بن البـرج، فأتاه فقال: ياعلي أتخوفنا بالقتل، إنا لنرجـو أن نضربكم بها عن قليل غير

(١) أي يقولون لاحكم إلا لله .

مصفحات [١] ، ثم تعلم أينا أولى بها صليًّا ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في دينك فإنها إدهان وذلّ [٢] .

وأخرج الإمام الطبري نحو ذلك في عدة أخبار، وقد جاء في خبر عبد الملك بن أبي حرة الحنفي أن عليا رضي الله عنه خرج ذات يوم يخطب، وإنه لفي خطبته إذ حكَّمت المحكِّمة [٣] في جوانب المسجد فقال علي : الله أكبر ، كلمه حق يراد بها باطل ، إن سكتوا غممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم، فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال: الحمد لله غير مودَّع ربِّنا ولامُستغنًى عنه، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدَّنَّيَّة في ديننا، فإن إعطاء الدنية في الدين إدهان في أمر الله عز وجل وذلٌّ راجع بأهله إلى سخط الله .

وفي خبر آخر عن كثير بن بهز الحضرمي، قال: قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجلٌ من جانب المسجد: لاحكم إلا لله، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يُحكِّمون ، فقال علي: الله أكبر ، كلمة حق يُلتمس بها باطل! أما إن لكم عندنا ثلاثًا ماصحبتمونا : لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولانمنعكم الفيءَ مادامت أيديكم مع أيدينا ، ولانقاتلكم حتى تبدءونا ، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته [٤] .

---

(١) يعني نضربكم بحد السيوف .

(٢) أنساب الأشراف ٣/ ١٢٦ - ١٣٠ .

(٣) يعني قال الخوارج لاحكم إلا لله .

(٤) تاريخ الطبري ٥/ ٦٤ - ٧٣ .

بعث ابن عباس لمحاورتهم :

هذا وقد أرسل إليهم أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ليجادلهم بالحكمة ويدعوهم بالتي هي أحسن ، وقد ورد الخـبر عن ذلك من عدة طرق، منها مـاأخرجه الإمام عـبد الرزاق الصنعاني من خـبر أبي زُمَيل سمـاك الحنفي قال: حدثنا عبد الله بن عباس قال: لما اعتزلت الحرورية فكانوا في دارٍ على حدَتهم قلت لعليّ : ياأمير المؤمنين ! أبردْ عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأُكلِّمهم ، قال: إني أتخـوفهم عليك، قلت : كلاَّ إن شاء الله تعالى ، قال: فلبست أحسن ماأقـدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهـيرة، قال: فدخلت على قوم لم أرَ قـومًـا قطُّ أشـدّ اجـتـهادًا منـهم، أيديهم كـأنهـا ثفن الإبل، ووجوههم معلَّمـة من آثار السجود، قال: فدخلت ، فقـالوا: مرحبًا بك ياابن عبـاس ! ماجاء بك ؟ قلت : جئت أُحدِّثـكم عن أصحاب رسـول الله ﷺ ، عليهـم نزل الوحي ، وهم أعلم بتـأويله ، فقـال بعضهم : لاتحدِّثوه ، وقال بعـضهم : والله لنحدثنَّه ، قال : قلت: أخبروني ماتنقمون على ابن عمِّ رسول الله ﷺ وختنه، وأوَّل من آمن به ؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معـه ؟ قالوا : نَنقم عليه ثلاثًا ، وقد قال: قلت: وماهُنَّ ؟ قـالوا : أولهن أنَّه حكَّم الرجال في دين الله ، وقد قال الله : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ (١) ، قال : قلـت: وماذا ؟ قالوا :وقـاتل ولَمْ يَسْبِ ، ولم يغنم ، لئن كانوا كفَّـارًا لقد حلَّت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقـد حرمت عليه دماؤُهم ، قال: قلت:

(١) سورة الأنعام الآية (٥٧) ، وسورة يوسف الآية (٤٠) والآية (٦٧) .

وماذا ؟ قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافـرين ، قال : قلت : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحْكَم ، وحدَّثتكم من سُنَّة نبيه ﷺ مالا تنكرون، أترجـعون ؟ قالوا: نعم ، قال : قلت : أمَّا قولكم : حكَّم الرجال في دين الله ، فإن الله تعالي يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ (١) وقال في المرأة وزوجها :﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ (٢) أنشدكم الله أحُكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسـهم ، وإصلاح ذات بينهم أحقُّ أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟ قـالوا : اللهـم بل في حـقن دمـائهم ، وإصـلاح ذات بينهم، قـال: أخـرجتُ من هذه ؟ قالوا :اللـهم نعم ، قال : وأمـا قولكم : إنـه قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم ، أتسْبُونَ أمَّكم عـائشة ؟ أم تستحلُّونَ منها مـاتستَحلُّون من غيرها، فقد كفـرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفـرتم وخرجتم من الإسلام ، إن الله يقول : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُـؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُـسِـهِمْ وَأَزْوَاجُـهُ أُمَّـهَـاتُـهُمْ** ﴾ (٣)فأنتم متردّدُون بين ضـلالتين ، فاختاروا أيتـهما شئـتم، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم ، قال: وأما قولكم : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشـا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ، فقال: اكتب : هذا ماقاضى عـليه محمد رسول الله ،فقالوا:

(١) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٢) سورة النساء الآية (٣٥) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٦) .

والله لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت، ولاقاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبـد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقّا وإن كذَّبتموني . اكتب ياعليُّ ! محمد بن عبد الله ، فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه ، أخرجتُ من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم ، فرجع منهم عشرون ألفًا ، وبقي منهم أربعة آلاف، فقُتلوا(١) .

وذكر الحـافظ الهيثمي أن الإمـام الطبراني رواه وأن الإمام أحـمد روى بعضه قال: ورجالهما رجال الصحيح (٢) .

وأخرجه الحافظ البيهقي وذكر نحوه وفيه : فرجع من القوم ألفان وقُتل سائرهم على ضلالة (٣) .

وماجاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة والصواب مـاجاء في الروايات الأخرى من أنهم كـانوا أربعة آلاف ثم زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف على اختلاف الروايات .

جريمتهم بقتل المسلمين الآمنين :

أخرج البلاذري من خبر أبي مجلز : أن عليًا رضي الله عنه نهى أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثا .

قال: وكان الخوارج الذين قدموا من البـصرة مع مسعر بن فدكي استـعرضـوا الناس في طريقهم ، فـإذا هم برجل يسوق بامـرأته على حمـار له ، فدعوه وانتهـروه ورعّبوه وقالوا له : من أنت ؟ فـقال :

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١٠/١٥٧ - ١٦٠ رقم ١٨٦٧٨ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/٢٣٩ - ٢٤١ .

(٣) سنن البيهقي ٨/ ١٨٠ .

رجل مؤمن قالوا : فما اسمك ؟ قال: أنا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ . فكفوا عنه، ثم قالوا له: ماتقول في علي ؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين ،وإمام المسلمين، وقد حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ستكون فتنة يموت فيها قلب الرجل فيصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا » . فقالوا: والله لنقتلنك قتلة ماقُتِلَها أحد ، وأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى مُتِمّ حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت رطبة منها فقذفها بعضهم في فيه ، فقال له رجل منهم : أبغير حلها ولاثمن لها؟ فألقاها من فيه واخترط سيفه وجعل يهزه فمرّ به خنزير لذمي فقتله بسيفه، فقال له بعض أصحابه : إن هذا لمن الفساد في الأرض. فطلب صاحب الخنزير حتى أرضاه، فقال ابن خباب : لئن كنتم صادقين فيما أرى وأسمع إني لآمن من شرّكم . قال: فجاؤوا به فأضجعوه على شفير نهر وألقوه على الخنزير المقتول فذبحوه عليه ، فصار دمه مثل الشراك قد امذقرّ [١] في الماء ، وأخذوا امرأته فبقروا بطنها وهي تقول: أما تتقون الله ؟ وقتلوا ثلاث نسوة كنّ معها .

فبلغ عليّا خبر ابن خباب وامرأته والنسوة، وخبر سواديٍّ لقوه بنفّر فقتلوه ، فبعث علي إليهم ابن الحارث بن مرّة العبدي ليتعرف حقيقة مابلغه عنهم ، فلما أتى النهروان وقرب منهم خرجوا إليه فقتلوه،وبلغ ذلك عليّا ومن معه، فقالوا له: ماتَرْكُنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا وعيالاتنا بما نكره ؟ سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم

(١) أي لم يختلط بالماء .

سرنا إلى عدونا من أهل المغرب[1]، فإن هؤلاء أحضر عداوة وأنكى حدًا.

وقال : وقام الأشعث بن قيس فكلمه بمثل ذلك فنادى عليّ بالرحيل [2].

وقد أخرج الخطيب البغدادي خبر قتلهم عبد الله بن خباب بنحو ذلك [3] .

وأخرج البلاذري من خبر حميد بن هلال عن رجل من عبدالقيس كان مع الخوارج ثم فارقهم قال: وأتى عليّ المدائن وقد قدمها قيس بن سعد بن عبادة ، وكان عليّ قدَّمه إليها. ثم أتى عليّ النهروان فبعث إلى الخوارج : أن أسلموا لنا قتلة ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثم أنا تارككم إلى فراغي من أمر أهل المغرب فلعل الله يُقبل بقلوبكم ويردكم إلى ماهو خير لكم وأملك بكم . فبعثوا إليه أنه ليس بيننا وبينك إلا السيف إلا أن تقرّ بالكفر وتتوب كما تبنا فقال علي: أَبَعْدَ جهادي مع رسول الله ﷺ وإيماني أشهد على نفسي بالكفر؟ لـ ﴿ **قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ [4] ثم قال :

يـاشـاهدًا لله عـليَّ فاشهد   آمـنـت بالـلـه وليِّي أحمد

من شك في الله فإني مهتد

(١) يعني أهل الشام ، وكانوا يسمون الشام المغرب .

(٢) أنساب الأشراف ١/ ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٢٠٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية (٥٦) .

وكتب إليهم : « أما بعد فـإني أذكركم أن تكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا بعد أن أخذ اللـه ميثاقكم علي الجماعة، وألف بين قلوبكم علي الطاعة، وأن ﴿ **تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ (١). ودعاهم إلى تقوى الله والبـرّ ومراجعة الحق، فكتب إليه ابن وهب الراسبي ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (٢) إن الله بعث محمدًا بالحق وتكـفل له بالنصر كما بلغ رسالاته ، ثم تـوفاه إلى رحمـته ، وقـام بالأمر بعده أبو بـكر بما قد شهـدته وعاينته مـتمسكًا بدين الـله مؤثرًا لرضاه حـتى أتاه أمر ربه، فاستخلف عمر ، فكان من سيرته ماأنت عالم به ، لم تأخذه في الله لومة لائم ، وختم الله له بالشهادة، وكان من أمـر عثمان ماكان حتى سار إليه قـوم قتلوه لما آثر الهوى وغيّر حكم اللـه، ثم استخلفك الله على عـباده فـبايـعك المؤمنون وكنت لذلك عندهم أهلاً ، لقـرابتك بالرسـول ، وقَدَمك في الإسـلام ، ووردتَ صفين غـير مـداهن ولا وان، مـبتـذلاً نفسك في مـرضاة ربـك فلما حَـميت الحـرب وذهب الصالحـون : عمار بن ياسـر ، وأبو الهيثم بن التَّـيِّهان ، وأشـباههم اشتمل عليك من لافقه له في الدين ولارغبة في الجهاد، مثل الأشعث ابن قيس وأصحابه واستنزلوك حتى ركنت إلى الدنيا، حين رُفعت لك المصاحف مكيدة فتسـارع إليهم الذين استنزلوك ، وكانت منا في ذلك هفـوة ثم تداركنا الله منه برحـمتـه ، فحـكَّمتَ في كتـاب الله وفي نفسك، فكنت في شك من ديـنك وضلال عدوك وبغيـه عليك، كلا

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٥) .

(٢) سورة الرعد الآية (١١) .

واللـه يابن أبي طـالب ، ولكنـكم﴿ظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[1] وقلتَ لي قـرابة من الرسول وسـابقة في الدين فـلا يعدل الناس بي معـاوية، فالآن فتب إلى الله وأقرّ بذنبك ، فـإن تفعل نكن يدك على عدوك، وإن أبيت ذلك فالله يحكم بيننا وبينك .

قالوا : وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فناداهم فقال: ياعباد الله أخرجوا إلينا طِلبتَنا وانهضوا إلى عدوكم وعدونا معـًا . فقال له: عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قـد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أبدًا أو تأتونا بمثل عمر . فقال: والله مانعلم على الأرض مثل عمر إلا أن يكون صـاحـبنا ، وقـال: لهم علي : « ياقـوم إنه قـد غلب عليكم اللجـاج والمراء واتَّبعـتم أهواءكم فطمح بكم تزيين الشـيطان لكم وأنا أنذركم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الغائط وأثناء هذا النهر » .

فلم يزل يعظهم ويدعـوهم فلما لم ير عندهم انقيـادًا - وكان في أربعة عشر ألفًا - عبّأ الناس فجعل على ميمنته حجر بن عدي الكندي وعلى مـيسـرته شبث بن ربعـي وعلى الخيل أبا أيوب خـالد بن زيد الأنصاري ، وعلى الرجـال أبا قتادة الأنصـاري- واسمه النعـمان بن ربعي بن بلدمـة الخـزرجي - وعلى أهل المدينة وهم سـبـعمـائة- أو ثمانمائة - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري .

ثم بسط لهم عليّ الأمـان ودعاهـم إلى الطاعة، فـقال فـروة بن نوفل الأشـجعي: والله مـاندري على مـانقاتل عليّـا ؟ فانصـرف في خمسمـائة فارس حتى نزل البندنيجين[2] والدسكرة، وخرجت طائفة

(١) سورة الفتح الآية (١٢) .

(٢) بلدة في طرف النهروان -معجم البلدان -.

منهم أخرى متفرقين إلى الكوفة، وأتى مسعر بن فدكي التميمي راية أبي أيوب الأنصاري في ألف، واعتزل عبد الله بن الحوساء - ويقال: ابن أبي الحوساء الطائي - في ثلاثمائة وخرج إلى عليّ منهم ثلاثمائة فأقاموا معه ، وكانوا أربعة آلاف فارس ومعهم خلق من الرجّالة. واعتزل حوثرة بن وداع في ثلاثمائة ، واعتزل أبو مريم السعدي في مائتين، واعتزل غيرهم ، حتى صار مع ابن وهب الراسبي ألف وثمانمائة فارس ، ورجالة يقال : إنهم ألف وخمسمائة.

وقال علي لأصحابه : كفوا عنهم حتى يبدأوكم. ونادى جمرة بن سنان: روحوا إلى الجنة ، فقال ابن وهب : والله ماندري أنروح إلى الجنة أم إلى النار وتَنادَى الحرورية : الرواح إلى الجنة معاشر المخبتين وأصحاب البرانس المصلين، فَشَدُّوا على أصحاب عليّ شدة واحدة، فانفرقت خيل عليّ مُنفرقَين : فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرجالة فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل حتى كأنهم معزى تتقى المطر بقرونها ، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض عليّ إليهم من القلب بالرماح والسيوف فما لبثوا أن أُهمدوا في ساعة (١) .

خبر ذي الثُّدَيَّة ومعجزة لرسول الله ﷺ :

أخبر النبي ﷺ عن صفة الخوارج الذين يخرجون على جماعة المسلمين ، وأخبر عن رجل فيهم في عضده مثل الثدي، وقد وُجد في

(١) أنساب الأشراف ١/ ١٤٤ - ١٤٧ ، وانظر تاريخ الطبري ٥/ ٨١ - ٨٧ ، البداية والنهاية ٧/ ٢٩٥ - ٢٩٨ ، الفتح الرباني ٢٣/ ١٥٤ - ١٥٩ ، تاريخ بغداد ١/ ٢٠٥.

هذه الفرقة من الخوارج الذين خـرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كـما أخـبر عنه رسول اللـه ﷺ ، ومما جاء في خبره ماأخرجه الإمام مـسلم من حديث سلمة بن كهيل : حدثني زيد ابن وهب الجهني ، أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه الذين سـاروا إلى الخـوارج . فـقـال علي رضي الله عنه : أيهـا الناس ! إني سـمعتُ رسـول الله ﷺ يقول « يخـرج قومٌ من أمـتي يقرأون القـرآن. ليس قراءتكم إلى قراءتهـم بشيء . ولاصلاتكم إلى صلاتهم بشيء . ولاصيامكم إلى صـيامهم بشيء . يقرأون القرآن . يحسبون أنه لهم وهو عليهم . لاتجاوز صلاتهم تراقيهم . يمرقون من الإسـلام كـمـا يمرق السـهم من الرمـيـة » . لو يعلم الجـيش الذين يصيبونهم ، ماقُضي لهم على لسان نبيهم ﷺ ، لاتكلوا عن العمل . وآية ذلك أن فـيـهم رجـلا له عـضـدٌ . وليس له ذراعٌ . على رأس عضده مثل حلمة الثدي . عليه شـعراتٌ بيضٌ . فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هـؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم ! والله إني لأرجـو أن يكونوا هؤلاء القوم فـإنهم قـد سفكوا الدم الحـرام . وأغاروا في سرح الناس (١) . فسيروا على اسم الله .

قال سلمة بن كهيل : فنزلني زيد بن وهب منزلاً (٢). حتى قال :

---

(١) (وأغاروا في سرح الناس) السرح الماشية. أي أغاروا على مواشيهم التي ترعى .

(٢) (فنزلني زيد بن وهب منزلا) هكذا هو في معظم الـنسخ: منزلا، مرة واحدة. وفي نادر منها : منزلا منزلا ، مـرتين . وهو وجه الكلام . أي ذكر لي مـراحلهم بالجيش منزلا منزلا حـتى بلغ القنطرة التي كـان القـتال عندها، وهذا هـو الموافق لرواية عبـد الرزاق من حديث سلمة بن كهيل نفسه - المصنف رقم ١٨٦٥٠ (١٠/١٤٧) .

مررنا على قـنطرة . فلما التقـينا وعلى الخوارج يومـئذ عـبد الله بن وهب الراسـبي . فقـال لهم : ألقـوا الرماح . وسُـلُّوا سيـوفكم من جـفونهـا. فإني أخـاف أن يناشـدوكم كمـا ناشدوكم يوم حـروراء. فرجعوا فوحـشوا برماحهم [١] .وسلُّوا السـيوف. وشجـرهـم الناس برماحهم [٢] . قال : وقتل بعضهم على بعض. وماأصيب من الناس يومئذ إلا رجلان . فقال عليٌّ رضي الله عنه :التمسوا فيهم المُخدج. فالتمسوه فلم يجدوه . فـقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناسًا قـد قتل بعـضـهم على بعض . قـال: أخروهم . فـوجـدوه مما يلي الأرض. فكبَّر . ثم قـال: صدق الله . وبلغ رسـوله . قال : فـقام إليه عبـيدة السلماني . فقال : ياأمـير المؤمنين ألله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال: إي . والله الذي لا إله إلا هو ! حتى استحلفه ثلاثًا [٣] . وهو يحلف له .

وأخرج الإمـام مسلم أيضا من حـديث عبيـد الله بن أبي رافع، مولى رسول الله ﷺ ، أن الحرورية لما خرجت، وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قـالوا : لاحُكم إلا لله . قال عليٌّ : كـلمة حق أريد بهـا باطلٌ . إن رسول الله ﷺ وصف ناسًـا ، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء،« يقولون الحق بألسنتهم لايجوز هذا منهم «وأشار

---

(١) (فوحشوا برماحهم) أي رموا بها عن بعدٍ منهم.

(٢) (وشجرهم الناس برماحهم) أي مدوها إليهم وطاعنوهم بها .

(٣) (حتى استحلفـه ثلاثا) قال الإمام النووي : وإنما استحلفه ليُسـمع الحاضرين ويؤكد ذلك عندهم ويظهـر لهم المعجزة التي أخـبر بهـا رسول الله ﷺ ويظهر لـهم أن عليا وأصحابه أولى الطائفين بالحق ، وأنهم محقون في قتالهم .

إلى حلقه » مِنْ أبغض خلق الله إليه منهم أسودُ إحدى يديه طبى شاة[1]أو حلمة ثدي » . فلما قتلهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : انظروا . فنظروا فلم يجدوا شيئا . فقال : ارجعوا . فو الله! ماكذبت ولاكُذبت . مرتين أو ثلاثا . ثم وجدوهُ في خربة . فأتوا به حتى وضعوه بين يديه . قال عبيد الله : وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليٍّ فيهم .

زاد يونس في روايته : قال بُكيرٌ : وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال : رأيتُ ذلك الأسود .

كما أخرج أيضا من حديث عبيدة السلماني ، عن علي رضي الله عنه قال : ذكر الخوارج فقال : فيهم رجل مخدج اليد ، أو مُودَنُ اليد [2] ، لولا أن تبطرُوا [3] لحدَّثتُكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ . قال قلتُ : آنتَ سمعته من محمد ﷺ ؟ قال : إي . وربِّ الكعبة ! إي . ورَبِّ الكعبة ! إي . ورَبِّ الكعبة[4] .

وأخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر عبد الملك بن أبي حرة ، أن عليّا خرج في طلب ذي الثُّدية ومعه سليمان بن ثُمامة الحنفي أبو جبرة ، والريان بن صبرة ابن هوذة ، فوجده الريان بن

---

(١) (إحدى يديه طبي شاة) المراد به ضرع الشاة . وهو فيها مجاز واستعارة . وإنما أصله للكلبة والسباع .

(٢) (مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد) مخدج اليد أي ناقص اليد . ومودن اليد ناقص اليد . ومثدون اليد صغير اليد مجتمعها .

(٣) (لولا أن تبطروا) البطر هنا : التجبر والغرور .

(٤) صحيح مسلم رقم ١٠٦٦ ، الزكاة (ص ٧٤٧ - ٧٤٩) .

صبـرة بن هوذة في حفـرة على شاطئ النـهر في أربعين أو خـمسين قتيـلاً. قال: فلما استخـرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مـجتمع على منكبه كثدي المرأة ، له حلمة عليها شـعرات سود ، فإذا مُدّت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما استخرج قال عليّ: الله أكبر !والله ماكذبتُ ولاكُذبت ، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيهﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قـتالهم، عارفًا للحق الذي نحن عليه. قال : ثم مرَّ وهم صرعى فقال: بؤسًا لكم ! لقد ضركم من غركم ، فقالوا: ياأمير المؤمنين ، من غرهم ؟ قال: الشيطان ، وأنفسٌ بالسوء أمّارة ، غرّتهم بالأماني،وزينت لهم المعـاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون . قال: وطُلب من به رمق منهم فوجـدناهم أربعمائة رجل ، فـأمر بهم عليّ فدُفعوا إلى عشائرهم ، وقـال: احملوهم معكم فداوُوهم ، فإذا برئوا فوافُوا بهم الكوفة، وخذوا مافي عسكرهم من شيء .

قال: وأما السلاح والدواب وماشهدوا به عـليه الحرب فقسَّمه بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم ردّه على أهله [١].

معجزة أخرى لرسول الله ﷺ :

أخرج الإمام أحمد من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال: كنا عند رسول الله ﷺ فـقال : فـيكم من يقـاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله [٢] .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٨٨ .

(٢) المسند ٣/ ٣١ .

يعني فكان أميـر المؤمنين علي بن أبي طالـب رضي الله عنه هو الذي قاتل مخـالفيه على تأويل القرآن كمـا قاتل الكفار على تنزيله، فوقع بذلك ماأخبر به النبي ﷺ .

حكم علي رضي الله عنه عليهم :

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر الإمام الحسن البصري قال: لما قتل علي رضي الله عنه الحـرورِيَّة ، قالوا : من هؤلاء ياأمير المؤمنين ؟ أكفارٌ هم ؟ قال: من الكفر فرُّوا ، قيل : فمنافقون ؟ قال: إنَّ المنافقين لايـذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكـرون الله كثـيراً ، قيل: فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصمُّوا (١).

مثل من ورع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

أخرج الإمام الطبـري من خبر المحل بن خليفـة : أن رجلا منهم من بني سدوس يقـال له العيزار بن الأخنس كـان يرى رأي الخوارج، خرج إليهم ، فـاستقبل وراء المدائن عدي بن حاتم ومـعه الأسود بن قيس والأسـود بن يزيد المراديان ، فقـال له العيـزار حين استـقبله : أسالمٌ غانم ، أم ظالمٌ آثم ؟ فقال عديّ : لا ، بل سالمٌ غانم ، فقال له المراديان : ماقلت هذا إلا لشـرّ في نفسك، وإنك لنعرفك ياعـيزار برأي القوم ، فـلا تفارقنا حتى نذهـب بك إلى أمير المؤمنين فنخـبره خبرك. فلم يكن بأوشك أن جـاء علي فأخبراه خبره، وقـالا : ياأمير المؤمنين ، إنه يرى رأي القوم ، قد عرفنـاه بذلك ، فقال: مايحل لنا دمه ، ولكنا نحبـسه ، فقال عدي بن حاتم : ياأميـر المؤمنين ، ادفعه

---

(١) مصنف عبد الرزاق ، رقم ١٨٦٥٦ (١٠/ ١٥٠) .

إليّ وأنا أضمن ألا يأتيك من قبله مكروه . فدفعه إليه [1] .

وهكذا ابتلي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأول حركة قتالية يقوم بها الخوارج ، فكان ذلك من الخير للأمة الإسلامية، حيث سار في معاملتهم قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها على توجيهات النبي ﷺ ، فكان بذلك أول قائد يطبق منهج الإسلام في قتال الخوارج .

وقد تبين لنا من صفاتهم في هذه الأخبار زيادة على ماجاء في وصفهم في الأحاديث النبوية التي مرَّ ذكرها، أنهم يتأولون آيات الله تعالى التي نزلت في الكفار على غير وجهها، حيث يطبقونها على مخالفيهم من المسلمين ، وفي ذلك يقول الإمام البخاري وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله ، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين [2] .

ومن ذلك أنهم يتسرَّعون في تكفير المسلمين، فيحكمون بالكفر على من وقع في الخطإ في نظرهم، وبالتالي فإنهم يرون وجوب قتال المسلمين الذين لايظهرون التوبة من الذنب، و إن كان هؤلاء المسلمون لايرون ذلك ذنبا .

هذا ولقد كانت لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه في مواجهة تلك المحنة مواقف جهادية وأخلاقية عالية فمن ذلك أنه تحمل خلافهم وردودهم القاسية واعتراضاتهم الجافية، وأنه وعدهم بأنه لن يؤاخذهم

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٨٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين باب / ٦ (١٢/ ٢٨٢) .

بكلامـهم مالم يسـفكوا دما أو ينتـهبـوا مالا ، وقـد وفى لهم بذلك بالرغم من أنهم اتهـموه بالشرك والـكفر والمداهنة في أمر الـله تعالى واعـتـرضـوا عليـه وهـو يخطب ، فلم يأخـذهم بـقـتل ولابسـجن ولابتعذيب، وهذا يعتبر من أروع أمثلة العدل والسماحة والحكمة.

لقد أعطاهم أمير المؤمنين رضي اللـه عنه الحرية الكاملة والفرصة التامة للتعبير عن آرائهم ، وجادلهم في شبهاتهم - بالتي هي أحسن- بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، فلمـا أفحمهم ولم يجدوا مجالا للكلام ورأوا أن جـدالهم لايكسبـهم أنصارا، وأن عددهم صـار يقل يوما بعد يوم بسبب انقياد عقلائهم للبراهين التي احتج بها عليهم علي وابن عبـاس رضي الله عنهم ومن ناشدوهم من قـادة المسلمين . . لما رأو ذلك لجؤوا إلى الحـرب فاعـتدوا على الآمنين ، وسـفكوا الدماء المحرمة ، فحلَّ بذلك قتالهم وزالت حرمة دمائهم .

لقد كان الوضع السيـاسي في ذلك العهد مستقيـما عادلا، حيث كانت الكلـمة للحجـة والبرهان ، لا للسـيف والسنان، فكان أولئك الخوارج يتكلمون كيف شاؤوا ، ويجتـمعون كيف شاؤوا ، ويجادلون بقـوة وجرأة ، ولكنهم لم يكونـوا أهلا للعدالة، لأنهم لم يحـترمـوا منطق العقل السليـم، ولم يقتصروا على التـعبير بـألسنتهم ، ولكنهم لجؤوا إلى التعبير بقوة سلاحـهم ، بغيًا وغرورًا وعدوانا، فقضوا على أنفسـهم بأنفسهم ، وأبادوا بجهـلهم جزءًا كبيـرًا من الأمة، وغُطِّيت بسبـب رعونتهـم أرض المعركة بـأجساد أبطـال لو وجهوا إلـى أعداء الإسلام لكانت لهم فيهم نكاية كبيرة .

ولقد كانت الفرصة أمامهم متاحة حتى اللحظات الأخيرة، حينما

قل عددهم وواجهوا جيشا أضعاف عددهم، حيث كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم ينقطع عن مناشدتهم في العودة إلى الصف، وكانوا يعلمون صدقه في ذلك، ولكن قادتهم لما خشوا من تراجع بعض جنودهم أمروهم بالهجوم السريع، فكان هجومهم انتحاريًا حيث قُتلوا أو جُرحوا جميعًا ولم يفلت منهم أحد .

ولقد طبق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه سنة الإسلام في قتال البغاة من المسلمين ، حيث أمر جنوده أن لايجْهزوا على جرحاهم، وأن لايتبعوا مدبرهم ، وأن لايسبوا نساءهم ولاذراريهم، وأمر بحمل الجرحى وعلاجهم ، ثم إيصالهم إلى أهاليهم .

وقوله ﷺ « يمرقون من الدين » هل هو دليل على كفر الخوارج؟ ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى أقوال عدد من العلماء حكموا بكفر الخوارج لظاهر هذا الحديث، ولقوله « لأقتلنهم قتل عاد » وفي لفظ « ثمود » وكل منهما إنما هلك على الكفر ، ولقوله « هم شر الخلق » وقوله « إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى» ولتكفيرهم أعلام الصحابة رضي الله عنهم وفيهم من شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ثم ذكر أن أكثر أهل الأصول من أهل السنة على أن الخوارج فساق ، وأن حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام ، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد ، وجرّهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك (١) .

---

(١) فتح الباري ١٢/٢٩٩ - ٣٠٠ .

ومن العلماء الذين حكموا بعدم كفرهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : وأصحاب الرسول ﷺ - علي بن أبي طالب وغيره- لم يكفّروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ماخرجوا عليه وتحيزوا بحروراء، وخرجوا عن الطاعة والجماعة ، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن لكم علينا أن لانمنعكم مساجدنا، ولاحقكم من الفئ . ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ، ثم قاتل الباقي وغلبهم ، ومع هذا لم يسب لهم ذرية، ولاغنم لهم مالا ، ولاسار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين، كمسيلمة الكذّاب وأمثاله ، بل كانت سيرة عليّ والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة، ولم ينكر أحد على عليّ ذلك، فعُلم اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام .

قال: وقال الإمام محمد بن نصر المروزي : « وقد ولي عليّ رضي الله عنه قتال أهل البغي، وروى عن النبي ﷺ فيهم ماروى، وسمّاهم مؤمنين، وحكم فيهم بأحكام المؤمنين. وكذلك عمار بن ياسر ».

وقال محمد بن نصر أيضا : « حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا يحيى بن آدم ، عن مفضل بن مهلهل ، عن الشيباني ، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: « كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان ، فقيل له : أمشركون هم ؟ قال: من الشرك فرّوا. فقيل : فمنافقون ؟ قال: المنافقون لايذكرون الله إلا قليلا . قيل : فما هم ؟ قال : قوم بغوا علينا فقاتلناهم » (١) .

---

(١) منهاج السنة النبوية ٥/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

وواضح أن القول بعدم تكفيـر الخوارج أصوب لأن ذلك هو قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالـب رضي الله عنه وقد أقـره الصحـابة رضي الله عنهم على ذلك ولـم يُنقل عنهم خلافـه ، والصحـابة هم أعلم المسلمين بتأويل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

* * *

الخوارج في عهد بني أمية

لقد كثر خروج الخوارج في المشرق والمغرب في عهد بني أمية وماتخلل ذلك من إمامة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وسأكتفي بذكر أمثلة مما جرى من الخوارج في المشرق في عهد معاوية ابن أبي سفيان وعهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم لأنهما من أئمة الهدى ولأنهما صحابيان جليلان ، كما سأذكر مثالا مما جرى من الخوارج في المغرب لأهميته في حماية المسلمين من شر أولئك الخوارج.

ثورة فروة الأشجعي وأصحابه :

كانت فرقة من الخوارج قد اعتزلت بشهرزور أيام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وكانوا خمسمائة مع فروة بن نوفل الأشجعي، فلما استشهد علي رضي الله عنه خرجوا وهزموا جيش الشام الذي أرسل إليهم فقال معاوية لأهل الكوفة : لاأمان لكم عندي حتى تكفُّوا بوائقكم ، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم فقتلوهم . وذلك في سنة إحدى وأربعين (١) .

وكون أهل الكوفة خرجوا لقتال أبناء قبائلهم دليل على أن النقمة على الخوارج كانت لدى المسلمين عامة ، وذلك لشذوذهم وسوء معتقدهم ، حيث يعتقدون كفر من خالفهم، ويستحلون دماءهم وأموالهم، ويتبرؤون ممن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة كعثمان وعلي رضي الله عنهما .

---

(١) تاريخ الطبري باختصار ٥/ ١٦٥ - ١٦٦ .

ثورة المستورد التيمي وأصحابه :

وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت فرقة منهم بقيادة المستورد بن علّفة التيمي ، وكانوا يجتمعون سرّاً في الكوفة، فعلم بهم أميرها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فقام في الناس خطيبا وأنذر رؤساء العشائر ، وحذر من إيوائهم ، فنادى رؤساء العشائر أقوامهم وحذروهم من إيواء الخوارج ، فلما علم بذلك هؤلاء الخوارج تسللوا خفية وخرجوا من الكوفة وتوجهوا نحو « سور » وتجمعوا من أنحاء البلاد حتى اكتمل عددهم ثلاثمائة فساروا نحو « الصراة » .

ثم إن المغيرة بن شعبة علم بهم فعقد جيشا لقتالهم بقيادة معقل ابن قيس الرياحي وجهز معه ثلاثة آلاف رجل .

وسار الخوارج حتى مروا بالمدائن فمنعهم أميرها سماك بن عبيد من دخولها ، وعلم أمير الخوارج المستورد بخروج معقل بن قيس من الكوفة على أثرهم فأشار على أصحابه بالرحيل حتى يتقطع جيش الكوفة في ملاحقتهم .

وعلم بذلك معقل بن قيس بعدما وصل المدائن فأمر أصحابه بعدم ملاحقتهم حتى يُفَوِّت عليهم هذه الفرصة، وقدَّم بين يديه مقدمة بقيادة أبي الروَّاغ الشاكري في ثلاثمائة فارس، فلحق بهم في « المذار» فأمر المستورد أصحابه بالهجوم عليهم وإبادتهم قبل وصول الجيش، فهجموا عليهم فانهزم أكثر أصحاب أبي الرواغ وثبت هو وقليل من جيشه، ثم أصبح يراوغهم بين الكر والفر حتى يَقْدم معقل بن قيس.

وعلم معقل بما جرى فأسرع في سبعمائة من أهل النجدة حتى

وصلوا إلى أبي الرواغ ، فهجم عليهم الخوارج وانهزم أكثر أهل الكوفة ، وثبت معقل ونزل وقال: الأرض الأرض ياأهل الإسلام، ونزل معه أبو الروّاغ الشاكري وثبت معهم نحو مائتين من أهل النجدة والحفاظ ، فلما غشيهم المستورد وأصحابه استقبلوهم بالرماح والسيوف، ثم فاء أهل الكوفة بعد أن ناداهم مسكين بن عامر، فشدوا على الخوارج حتى هزموهم .

وعلم المستورد أن جيشا آخر قد خرج من البصرة بقيادة شريك بن الأعور وكان قد أرسله أميرها عبد الله بن عامر مددا لإخوانهم من أهل الكوفة ، فقرر الخوارج الفرار حتى لايقعوا بين الجيشين فانسحبوا إلى « جرجيا » .

وعلم بذلك معقل فقرر ملاحقتهم وقدم أمامه أبا الروّاغ الشاكري في ستمائة من أصحابه ، أما جيش البصرة فإنهم رجعوا لشعورهم بعدم الحاجة إليهم واحتياج مناطق أخرى لجهادهم .

ولحق أبو الرواغ بالخوارج وجرت بين جيشه وجيش الخوارج مناوشات ، ولما رأى أمير الخوارج ثبات أبي الرواغ وجيشه قرر مباغتة جيش معقل ، فانسحب بجيشه نحوهم وهجموا عليهم فانهزم أكثر جيش الكوفة وثبت معقل في طائفة من أصحابه، وعلم أبو الرواغ بذلك من فلول المنهزمين فأسرع في أصحابه نحو معقل فوجدهم يقاتلون الخوارج قتالا شديداً فشدوا عليهم مع من ثبت من جيش الكوفة مع معقل ، ونادى أمير الخوارج أصحابه بالنزول إلى الأرض وتركوا الخيل ونزل أصحاب معقل أيضا والتحموا بالسيوف في معركة

حاميــة ، ونادى المستورد معــقلا إلى البراز ، فبرز له فطـعنه المستورد برمحه وضربه معقل بسيفه فماتا جميعا ، وظل الخوارج يقاتلون حتى قُتلوا جميعا ماعدا عبــد الله بن عقبة الغنوي الذي أصبح يخبر عنهم، وقد قُتل بعد ذلك في موقعة دير الجماجم (1) .

في هذا الخبر مواقف لبعض قادة المسلمين وأمرائهم ، فمن ذلك:

١ - موقف لأمير الكوفة المغيــرة بن شعبة رضي الله عنه، حيث كان يقظا حذرا عارفا بما يجرى تحت دائرة إمــارته، فقد عرف باجتماع أولئك الخوارج في أحد بيوت الكوفة ، ثم علم بهم لما خرجوا، ولقد كان حــازما حينما وجـه لهم ذلك الجيش واختــار له القائد الكفء ، فنجح في القضــاء عليهم وهم مــازالوا في أول أمرهم قبل أن تنتــشر دعوتهم ويكثر أنصارهم .

٢ - مواقف جــهادية عاليــة لقائد جيـش الكوفة معــقل بن قيس الرياحي، فهو **أولاً** قد علم بخطة الخوارج حــينما انسحبـوا ولم يقفوا للقتــال مع ما اشتــهروا به من الإقدام والــثبات ، ثم تصــرف بحكمة حينما لم يلاحقهم وبعث مقدمة تتعرف على أحوالهم .

وثانيًا : أنه قد ثبت في معــركتين حينما فرَّ أكثر جـيشه وبقي في قلة من جنوده حــتى فــاء بقيــة الجيش ، وهذا دليــل على شجــاعتــه وتضحيته في سبيل دينه وإخوانه المسلمين .

وثالثًا : أنه أقدم على مـبارزة أميــر الخوارج المستورد مع مــاعرف عن الخــوارج من الإقدام والثـبات، ومع مــاحصل على الخــوارج من

---

(١) تاريخ الطبري ٥/١٨١ - ٢٠٩ باختصار .

بوادر الهزيمة والاستئصال ، وماظهر من انتصار جيش معقل، فكان المستورد على هيئة المستميت لأن أغلب أحواله القتل، أما معقل فكان أغلب مايترجح عنده الحياة لإدبار ريح أعدائه وكثرة من يحميه من حوله، ومع ذلك أقدم على المبارزة رجاء الحصول على الشهادة التي هي أسمى أماني المسلمين .

٣ - مواقف جهادية لقائد المقدمة أبي الروَّاغ الشاكري، حيث ثبت للخوارج في أول معركة وهو في المقدمة فقط ، ولما علم بأن جنوده لايستطيعون الثبات للخوارج صار يهجم ثم يحجم ويقرب ثم يبعد، لأنه لايريد أن يلتحم معهم التحاما كاملا فينهزم جيشه ، ولايريد أن ينسحب منهم لأن الانسحاب انهزام، وذلك يعطي الأعداء قوة وجرأة على القتال، حتى قدم عليهم معقل بن قيس ببقية الجيش.

وحينما انهزم جيش الكوفة وثبت قائدهم معقل بقلة من الجيش ثبت معه أبو الرواغ حتى فاء أهل الكوفة بعد ذلك.

وحينما غيَّر الخوارج خطتهم فانسحبوا عنه ليباغتوا معقلا وجيشه وعلم بذلك أبو الروَّاغ سارع لنجدتهم فوصل في الوقت المناسب، حيث اجتمع أفراد الجيش كلهم في قتال الخوارج حتى استأصلوهم ، فهذه المواقف تدل على أن أباالروَّاغ بطل مغوار وقائد محنك .

وهكذا انتهت حياة ثلاثمائة من المسلمين على هذا الوضع السيء مع ماشتهروا به من الصلاح والعبادة ، فكم يفقد المسلمون من الأبطال المغاوير بسبب سوء المعتقد واتباع الهوى ، وتحويل الطاقة القتالية إلى جسم أمتهم !!

خبر الخوارج مع ابن الزبير :

أخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي المخارق الراسبيّ ، قال: لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ماركب، وقد كان قبل ذلك لايكفّ عنهم ولايستبقيهم غير أنه بعد قتل أبي بلال تجرّد لاستئصالهم وهلاكهم ، واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة، وسار إليه أهل الشام ، فتذاكروا ماأتى إليهم ، فقال لهم نافع بن الأزرق : إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدا والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت مااستطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا. فخرجوا حتى قدموا على عبد الله ابن الزبير ، فسر بمقدمهم ، ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف و لاتفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة. ثم إن القوم لقى بعضهم بعضا ، فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس لغير رأي ولاصواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادي : يالَ ثارات عثمان ! فأتوه وسلوه عن عثمان ، فإن برئ منه كان وليكم ، وإن أبى كان عدوكم فمشوا نحوه فقالوا له : أيها الإنسان ، إنا قد قاتلنا معك، ولم نُفتشك عن رأيك حتى نعلم أمنا أنت أم من عدونا ! خبرنا مامقالتك في عثمان ؟ فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليلٌ ، فقال لهم: إنكم أتيتموني فصادفتموني حينَ أردت القيام ،ولكن رُوحوا إلى

العشية حتى أعلمكم من ذلك الذي تريدون. فانصرفوا ، وبعث إلى أصحابه فقال : البسوا السلاح ، واحضروني بأجمعكم العشية، ففعلوا ، وجاءت الخوارج ، وقد أقام أصحابه حوله سماطين عليهم السلاح ، وقامت جماعةٌ منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة، فقال ابن الأزرق لأصحابه : خشي الرجل غائلتكم ، وقد أزمع بخلافكم واستعدّ لكم ، ماترون ؟

فدنا منه ابن الأزرق ، فقال له : يابن الزبير، اتق الله ربك، وأبغض الخائن المستأثر ، وعاد أول من سن الضلالة ، وأحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب، فإنك إن تفعل ذلك تُرض ربك، وتُنج من العذاب الأليم نفسك، وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم ، وأذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم .

ياعبيدة بنّ هلال ، صف لهذا الإنسان ومن معه أمرنا الذي نحن عليه، والذي ندعو الناس إليه ، فتقدم عبيدة بن هلال ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ، فإن الله بعث محمداً ﷺ يدعو إلى عبادة الله ، وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك، فأجابه المسلمون، فعمل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عمل بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين . ثم إنّ الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وآثر القُربى ، واستعمل الفتى ورفع الدِّرة ، ووضع السوط ، ومزّق الكتاب، وحقر المسلم وضرب منكري الجور، وآوى طريد الرسول ﷺ ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيرهم وحرمهم ، ثم أخذ فئ الله الذي أفاءه

عليهم فقسمه بين فساق قريش ، ومُجَّان العرب، فسارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته، لايبالون في الله لومة لائم، فقتلوه ، فنحن لهم أولياءُ ، ومن ابن عفان وأوليائه بُرآء، فما تقول أنت يابن الزبير ؟ قال: فحمد الله ابن الزبير وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ، فقد فهمتُ الذي ذكرتم ، وذكرت به النبي ﷺ ، فهو كما قلت ﷺ وفوق ماوصفته ، وفهمت ماذكرت به أبا بكر وعمر، وقد وفقت وأصبت ، وقد فهمتُ الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني ، كنتُ معه حيث نقم القوم عليه، واستعتبوه فلم يدع شيئا استعتبه القوم فيه إلا أعتبهم منه. ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم ، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم: ماكتبتُه ، فإن شئتم فهاتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفتُ لكم، فو الله ماجاءوه ببينة ، ولا استحلفوه. ووثبوا عليه فقتلوه، وقد سمعت ماعبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أني وليٌّ لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه ، وعدوّ أعدائه ، قالوا : فبرئ اللهُ منك ياعدوّ الله، قال: فبرئ الله منكم أعداء الله (1) .

تفرق الخوارج إلى فرق :

بعد محاورة الخوارج مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما تفرقوا ، فذهبت فرقة منهم إلى اليمامة واجتمعوا على نجدة بن عامر

---

(1) تاريخ الطبري ٥/ ٥٦٤ - ٥٦٦ .

الحنفي، أما أهل البصـرة فإنهم انقسموا إلى ثلاث فرق، فـرقة تبعت نافع بن الأزرق الحنظلي وهي أقوى الفـرق، وفرقة تبعـوا عبد الله بن صفار السعدي ، وفرقة تبعوا عـبد الله بن إباض ، وكان مخالفا لبقية الخوارج ، حيث كان يرى أن كفر المخالفين من المسلمين كفر نعمة وأنه لايجوز قتالهم ، وإليه تنسب فرقة الإباضية المشهورة .

مواقف أهل البصرة في قتال الأزارقة :

الأزارقـة هم فـرقة من الخـوارج ينتـسـبـون إلى نافع بن الأزرق الحنظلي، وأهم ماجاؤوا به من البدع في الدين أنهم كـفروا مخالفيهم من المسلمين وأباحـوا دماءهم وأمـوالهم ، وأنهم أباحـوا قتل أطفـال المخـالفين لهم من المسلمين ونسـاءهم ، وأنهم كفَّـروا القاعـدين عن القتال معهم ومن لم يهاجر إليهم وإن كانوا من الخوارج (١).

وقد اشتدت شوكة الأزارقة بقـيادة نافع بن الأزرق بسبب اشتغال أهل البصرة بالاخـتلاف الذي كان بين قبائلهم، وكـانت دولة الخلافة غيـر مسـتقرة ، حـيث كان النزاع بين عـبد الله بن الزبيـر رضي الله عنهما وبني أمية ، وكان أهل البصـرة قد اختاروا عبد الله بن الحارث الهاشـمي أميرا عليهم ، فـبعث إلى الخوارج جـيشا بقيـادة مسلم بن عبيس القرشي في أهل البصرة ، فاقتتلوا قتالا لم يُرَ مثله ، وقُتل أمير أهل البصرة عبد الله بن الحارث وقُتل رأس الخوارج نافع بن الأزرق ، وأمَّر أهل البصـرة عليهم الحجاج بن باب الحميـري، وأمَّرت الأزارقة عليهم عبد الله بن الماحوز، ثم عادوا فاقتـتلوا أشد قتال فقُتل الحجاج

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٢٠ .

ابن باب الحميري وقُتل عبد الله بن الماحوز ، ثم إن أهل البصرة أمَّروا عليهم ربيعة بن الأجـذم التميمي ، وأمَّرت الخوارج عليـهم عبيد الله اصبن الماحوز ، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا، وقد كره بعضهم بعضا وملُّوا القتال، فإنهم لمتـواقفون متحاجزون حـتى جاءت الخوارجَ سريةٌ لهم جامَّة لم تكن شـهدت القتال، فحملت على الناس من قِـبَل عبد القيس فانهزم الناس، وقـاتل أمير أهل البصرة ربيعـة الأجذم فقُتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر، فـقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه، فقاتل من وراء الناس في حمـاتهم وأهل الصبر منهم ، ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز [(١)] .

المُهَلَّب بن أبي صفرة والأزارقة :

تولى إمرة البصرة الحارث بن عـبد الله بن أبي ربيعة القرشي من قِبَل عـبد الله بن الزبير رضي الله عنهـما، فاتفق الحـارث مع أشراف أهل البصرة عـلى تولية المهلب بن أبي صفرة الأزدي قـتال الخوارج، وكان ذلـك بإشارة من الأحنف بن قـيس التمـيمي ، وذلك فـي عام خمسة وستين .

وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسر الأصـفر عليهم عبيد الله ابن الماحـوز ، فـخرج إليـهم المهلب فـي أشراف الناس وفـرسـانهم فحازهم عن الجسر ودفعهم عن البصرة وقد كادوا أن يدخلوها، ثم لم يزل يلاحـقـهم وهم ينحـازون عنه حتى وصـلوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له « سِلَّى وسِلَّبْرَى » فأقاموا به .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٦١٣ - ٦١٤ باختصار .

ولما بلغ حارثة بن بدر الغداني أن المهلب قد أُمِّر على قتال الأزارقة قال لمن معه من الناس :

كَرنِبوا ودَوْلِبوا (١) وحيث شئتم فاذهبوا

قد أُمِّر المهلَّب

فأقبل بمن كان معه نحو البصرة فصرفهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة إلى المهلب .

ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه، ووضع الجواسيس والحراس والمسالح الذين يحملون السلاح بالتناوب لصد الأعداء إذا أتوا على غِرَّة ، فكان الخوارج إذا أرادوا الهجوم ليلا وجدوا أمرا محكما فرجعوا، فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم من المهلب .

فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب لقتال الخوارج، وكان الخوارج أفضل من أهل البصرة من ناحية السلاح ، وذلك لأنهم قد أغاروا على بلاد فارس ، فانتقوا أفضل السلاح وأجود الخيول ، فالتقى الناس فاقتتلوا كأشد القتال وصبر بعضهم لبعض ، ثم إن الخوارج شدوا شدة منكرة فانهزم بعض أهل البصرة وأسرع المهلب فانحاز في مكان على غير طريق المنهزمين، ثم نادى الناس: إليَّ عباد الله ، فثاب إليه بعضهم واجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الله تعالى ربما يكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ،

---

(١) الأمر موجه للخوارج وهو للتحدي، أي تقلبوا حيث شئتم واجمعوا من شئتم .

ولعمـري مابكم الآن من قلة ، إني لجمـاعتكم لَراضٍ ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفـرسان أهل المصر، وماأحب أن أحدًا ممن انهـزم معهم، فإنهـم لو كانوا فيـكم مازادوكم إلا خـبالا ، عزمت علـى كل امرئ منكم لَمَا أخذ عشرة أحجار مـعه، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم فإنهم الآن آمنون، وقـد خرجت خـيلهم في طلب إخوانكم ، فـو الله إني لأرجو أن لاترجع إلـيهم خيلهم حـتى تستـبيـحوا عسكرهم وتـقتلوا أميرهم، ففعلوا ، ثم أقبل بهم راجـعا ، فلا والله ماشعُرَت الخوارج إلا بالمهلب يضـاربهم بالمسلمين في جـانب عسكرهم، ثم اسـتقـبلوا عبيدالله بن الماحوز وأصحابه وعـليهم الدروع والسلاح كاملا ، فأخذ الرجل من أصحـاب المهلب يستقبل الرجل منهم فـيستعـرض وجهه بالحجـارة فيرمـيه حتى يثخنـه، ثم يطعنه بعد ذلك برمحـه أو يضربه بسيفه، فلم يقاتلهم إلا ساعة حتى قُتل عبيد الله بن الماحوز، وضرب الله وجوه أصحابه، وأخذ المهلب عسكر القـوم ومافيه، وقُتل الأزارقة قتلا ذريعًا .

وأقبل من كان في طلب أهل البصـرة منهم راجعا وقد وضع لهم المهلب خيلا ورجالا في الطريق تختطفـهم وتقتلهم، فانكفؤوا راجعين مفلولين محروبين مغلوبين [1] .

ففي هذا الخبر مـواقف جهادية عالية لهؤلاء المجـاهدين، وخاصة قائدهم المهلب بن أبي صـفرة الأزدي ، حيث قاتلوا الخـوارج وقضوا على فتنة تلك الطائفة منهم وأراحوا المسلمين من شرهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٦١٦ - ٦١٩ .

ولقد ظهرت في هذا الجهاد مـواهب المهلب القيادية ، فمن ذلك تخطيطه الجـيد لحمـاية جيـشه في الليل ، وذلك بعـمل الخندق على المعسكر ووضع الحراس وبث الجواسيـس وإعداد الحماة الذين يحملون سلاحهم بالتناوب لصد أي هجوم ليلي من الخوارج .

ومن ذلك تصرفه الحكيم حينما انهزم بعض جيشه ، حيث انحاز في مكان آمن ، ونادى مـن ثبـتوا مـن جـيشـه، ثم هـجم بهم على معـسكر الخوارج بشكل مبـاغت، فكسب بذلك المعركة بعـد أن حقق الخوارج انتصارًا كبيرًا ، وقد كانت كـثير من المواجهات السابقة تنتهي بانتصار الخوارج ، ولكن هذا التصـرف الحربي البارع من المهلب أحال انتـصار الخـوارج إلى هزيمة ساحـقة عليـهم وانتصـار حاسم لجـيش المهلب .

ولقد كان لابتكاره سلاح الحـجارة أثر واضح في إرباك الأعداء ، لأنه قد خطط لالتحامهم وجهًا لوجه معهم ، فلن يكون هناك إمكانية لاستعمال سلاح النبـال ، فكان وقع الحجر على الوجه مربكا لمن وقع عليه ، وفي تلك الحال يكون الهجوم بالرماح أو بالسيوف حسب بُعْد العدو أو قربه .

كمـا أنه قد أمَّن جـيشه المهـاجم من الخلف حيث وضع فـرسانا يواجهـون فرسان العـدو العائدين من المطاردة ، وكل تلك الترتيـبات الحربية تدل على براعة المهلب بن أبي صفرة في التخطيط الحربي .

مثل من فتنة الخوارج في المغرب :

قال الحافظ الذهبي في بيان حوادث سنة خمس وعشرين ومائة :

وكانت الفتن شديدة بالمغرب ، ونيران الحرب تستعر ، وعليها الأمير حنظلة بن صفوان ، فزحف إليه عكاشة الخارجي في جمع ، فالتقوا فكانت بينهم وقعة لم يسمع بمثلها وانهزم عكاشة وقتل من البربر من لايحصى ثم تناخوا وسار رأسهم عبد الواحد الهواري بنفسه فجهز حنظلة لملتقاه أربعين ألفًا فانكسروا وولّوا الأدبار وقتل منهم عشرون ألفًا ، ونزل عبد الواحد بجيوشه على فرسخ من القيروان، وكان فيما قيل في ثلاثمائة ألف ، فبذل حنظلة الأموال والسلاح وعبّأ عشرة آلاف فخرجوا ومعهم القراء والوعّاظ وكثر الدعاء والاستغاثة بالله وضجّ النساء والأطفال وكانت ساعة مشهودة، وسار حنظلة بين الصفوف يحرض على الجهاد ، واستسلمت النساء للموت لما يعلمن من رأي هؤلاء الصفرية (١) ، ثمّ كبر المسلمون وصدقوا الحملة وكسروا أغماد سيوفهم ، والتحم الحرب وثبت الجمعان ثم انكسرت ميسرة الإسلام ثم تراجعوا وحملوا فهزموا العدو وقُتل عبد الواحد الهواري وأُتي برأسه ، وقُتل البربر مقتلة لم يسمع بمثلها، وأُسر عكاشة وأُتي به فقتله حنظلة ، وأمر بإحصاء القتلى بالقصب بأن طُرح على كل قتيل قصبة ثم جمع القصب فبلغت مائة ألف وثمانين ألفًا . وهذه ملحمة مشهودة ما سمعنا بمثلها قط ، وهؤلاء الكلاب يستبيحون سبي نساء المسلمين وذرّيتهم ودماءهم ويكفّرون أهل القبلة ، وتعرف بغزوة الأصنام باسم قرية هناك .

---

(١) الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر ، وقد أنشأ مذهبه الخارجي في العراق ثم انتقل مذهبه إلى المغرب .

وعن الليث بن سعد قال : ماغزوة كان أحب إليّ أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الغرب بالأصنام [1] .

فهذه معركة عجيبة مدهشة لأمرين : أولهما أن عدد الأعداء من الخوارج أضعاف جيش حنظلة بن صفوان، وثانيهما أنه قد اشتهر أن الخوارج يستميتون في القتال وأنهم - مع قلتهم - ينتصرون على الجيوش الكبيرة ، ولكن الموازين في هذه المعركة قد تبدلت ، فأصيب الخوارج بالفشل والانتكاسة على كثرتهم، وفاز أهل السنة بالنصر على قلتهم .

وإننا حينما ندرس واقع هذه المعركة وواقع المعارك الأخرى التي كان الخوارج ينتصرون فيها نجد أن العامل القوي في انتصار الخوارج أنهم يقاتلون عن عقيدة راسخة، فهم إنما يقاتلون ليفوزوا بالشهادة فيتعجلوا للوصول إلى الجنة ، وهم وإن كانوا ضالين في منهجهم ويرتكبون العظائم في قتل المسلمين فإن ذلك لايؤثر على مستوى يقينهم لأنهم يعتقدون بأنهم على حق وأن الذين يقاتلونهم من المسلمين على الضلال والكفر ، ولكنهم في هذه المعركة قد واجهوا قوما قد ارتفع مستوى اليقين عندهم إلى أعلى مما هم عليه بكثير ، وقد اصطحب هؤلاء المجاهدون من أهل السنة معية الله تعالى لهم بالنصر والتأييد ، وتوكلوا عليه حق التوكل وضجوا بدعائه وطلب النصر منه ، بينما اتكل أعداؤهم على كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا لأن الله جل وعلا كان مع أوليائه المؤمنين الذين لا يعتدون على الآمنين

---

(١) تاريخ الإسلام / حوادث ووفيات ١٢١ - ١٤١ ص ١٢ - ١٣ .

ولايخيفون السبل، ففشل الأعداء أمامهم وأتاهم القتل من حيث لايحتسبون .

وفي آخر هذا الخبر دلالة على إعجاب علماء الإسلام بموقف المجاهدين من أهل السنة في هذه المعركة ، حيث شبهها عالم مصر الإمام الليث بن سعد بمعركة بدر .

* * *

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين مع الصليبيين

إن من أهم أسباب الحروب الصليبية أن المسلمين امتد نفوذهم حتى استولوا على أكثر بلاد الأناضول ، وخشي الروم من سقوط القسطنطينية بأيديهم ، خصوصا بعد معركة مَلاذْكُرد الناجحة الحاسمة حيث حطم السلطان ألب أرسلان قوات الروم التي تصل إلى مائتي ألف بجيش لايبلغ عشرين ألفا كما تقدم ، فخاف الروم إن هو جمع قواته البعيدة وانضم إليه مجاهدون من الإمارات الإسلامية الأخرى أن تسقط بلادهم بيد المسلمين ، فاستنجدوا بالصليبيين ، حيث قَدموا إلى بلاد الإسلام من الدول الأوربية .

وقد كان المسلمون آنذاك متفرقين إلى إمارات صغيرة فانتهز الصليبيون الفرصة واستولوا على مدن وحصون في بلاد الشام وماجاورها .

١ - بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين -

قد ذكـر المؤرخ ابن الأثير أن بداية الغـزو الصليبي لبـلاد الإسلام كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، حيث استولوا على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ، وأنهم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيـرة صقليـه واستـولوا عليهـا، وأنهم استـولوا على بعض أطراف أفريقية ، وأنهم خرجوا إلى بلاد الشام سنة تسعين وأربعمائة فاستولوا على أنطاكيـة بعد حصار دام تسعـة أشهر أبدى فيـه واليها باغيـسيان شجـاعة عظيمة ، وفي ذلك يقـول ابن الأثير : « وظهر من شجـاعة باغيسيـان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشـاهَد من غيره، فهلك أكثر الفرنج موتا ، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام » ولكن أنـطاكية سـقطت بيد الصليـبيين بسـبب خيـانة أحد المستحـفظين للأبراج بعد أن بذل له الأعداء مالا وإقطاعا فـفتح البرج لهم ودخلوا منه واستولوا على المدينة [١] .

حال المسلمين آنذاك :

كانت حال المسلمين يوم أن غـزا الصليبيون بلادهـم سيـئة للغاية، فالخـلافة في بغداد ضـعيـفة وليس للخليفـة إلا الاسم، والعبـيديون يحكمون مـصر وهم ليس عندهم أي حـماس للدفـاع عن الإسلام، والشام يـحكمه عـدد من الأمراء الضـعفاء ، والحـرب قائمـة بينهم، وحينـما اجتـمع بعضـهم تحت قيـادة كربوقـا في عام واحد وتـسعين وأربعمـائة اتفق الأمراء على الانهزام أمـام الصليبيين ليـوقعوا كـربوقا

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٥ - ١٨٦ .

الذي تكبَّر عليهم ، وكـان الصليبيون في أنطاكيـة في حال شديدة من الضعف والجوع والخوف حيث طلبوا الأمان في مقابل أن يخرجوا من البلد ، ولكن كربوقـا رفض ذلك ، فلما كانت المعركـة انهزم الأمراء من غيـر قتال حـتى ظن الصليبيـون أنها خدعة، فلـما تبين لهم أنهم جادُّون في الهزيمة شدوا علـى من بقي من المسلمين وقتلوا منهم ألوفا وتقووا بالغنائم ، وواصلوا زحفهم نحو بيت المقدس [١] .

سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :

لما سقطت أنطاكيـة بيد الصليبيين وانتـصروا على الأمراء الأتراك انتهز العبيديون في مصـر تلك الفرصة وساروا إلى بيت المقدس وكان واليه سقمان بن أرتق التركماني ،فحاصروه ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقـا إلى أن استولوا عليه وأنابوا في حكـمه رجلا يعرف بافـتخار الدولة،فقصده الصليبيون وحـاصروه نيفا وأربعين يوما إلى أن استولوا عليه يوم الجـمعـة لسبع بقين من شوال عـام اثنين وتسعين وأربعـمائة فلبثوا فيه أسبوعا يقتلون المسلمين،وقتلوا بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفا منهم جـماعة كثيرة من أئمة المسلـمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف[٢].

ولقد عبر عن هذه المأساة الشاعر أبو المظفر الأبيوَرْدي بقوله :

مزجْنا دِمانا بالدّموع السّواجم فلم يبقَ منا عرضةٌ للمَراجم[٣]

(١) الكامل في التاريخ ٨/١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ٨/١٨٩ .

(٣) السواجم : المذروفة والمراجم : من الرجم وهو الرمي بالأحجار .

وشــرُّ ســلاح المـرء دمعٌ يـريقـه إذا الحرب شبّتْ نارُها بالصوارم

فإيها بني الإســـلام إن وراءكم وقائعُ يُلحقــنَ الذرى بالمناسم[1]

وكيف تنامُ العينُ مـــلءَ جفونها على هفواتٍ أيقظتْ كــلَّ نائـم

وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلهم ظهورَ المذاكي أو بطونُ القشاعم[2]

تسومهمُ الـــرومُ الـهـوانَ وأنتـمُ تجرُّونَ ذيلَ الخفْضِ فعلَ المسالم

ومنها قوله :

وبين اختلاس الطعنِ والضرب وقفةٌ

تظـلُ لها الــولـــدانُ شيبَ القوادم

وتلكَ حروبٌ من يغبْ عن غمارهـا

ليسلم يـقـرعْ بعـدهــا ســـنَّ نـادم

سَلَلْنَ بأيــدي المشــركـينَ قـواضبًا

ستُغَمدُ منهم في الكِلَى والجماجم[3]

يـكــادُ لــهــنَ المستـجـيرُ بطـيـبةٍ

ينادي بأعلا الصوت يــا آل هاشـمِ

أرى أمتّي لايُشرعون إلـــى العــدا

رماحهم والــديــنُ واهي الدعـائـم

---

(١) المناسم : جمع منسم وهو خفّ البعير .

(٢) المذاكي : الجياد ، والقشاعم : النسور .

(٣) القواضب : القواطع من السيوف .

ويجتنبون النـارَ خـوفًا مـن الـرّدى

ولايحسبونَ العـارَ ضـربـةَ لازم

أيرضى صـناديدُ الأعاريـب بالأذى

ويُغضي على ذُلٍّ كماةُ الأعـاجم[1]

فليتهـموا إذ لـم يـذودوا حميةً

عـن الـدين ضنّوا غيرةً بالمحـارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمسَ الوغى

فـهـلا أتـوهُ رغبـةً فـي المغانم[2]

وهكذا يظهـر لنا الضـرر الفـادح من بُعْـد المسلمين عن الحيـاة الجهادية ، وضـعف الوعي الإسلامي فهؤلاء العلمـاء والعباد والزهاد الذين فضلوا الـرباط في المسجد الأقـصى وحوله لم يفـهموا شـمول العبـادة في الإسلام ، حـيث فهـموا أن العـبادة هي المبالـغة في أداء الشعائر التـعبدية والاشتغال بالعـلم القاصر، ولم يهتموا بالاسـتعداد للجهاد والمشاركة فيه وإعـداد العدة التي أمرهم الله تعالى بها في قوله ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [**الأنفال** : ٦٠]، فداهمهم الأعداء الحاقدون وذبحوهم كما تذبح الشياه .

---

(١) الكماة : الأبطال .

(٢) البداية والنهاية ١٢/١٦٧ .

إن هؤلاء السبعين ألفًا الذين قتلهم الصليبيون في المسجد الأقصى لو كانوا قد تدربوا على الجهاد، وأصبح كل واحد منهم يملك السلاح لاستطاعوا وحدهم أن يهزموا الصليبيين - بإذن الله تعالى - لأنهم لايملكون القوة الروحية بتوكلهم على الله جل وعلا واستمدادهم النصر منه، فإذا اجتمع مع هذا العامل المعنوي المهم العاملُ المادي، من التدرب على القتال وحمل السلاح فإن أصحاب ذلك لايغلبون بإذن الله جل وعلا .

جهاد سقمان وجكرمش مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام سبعة وتسعين وأربعمائة أنه لما استطال الفرنج - خذلهم الله - بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وأمرائه بقتال بعضهم بعضا وتفرقت كلمة المسلمين زحف الصليبيون نحو حران ليأخذوها، وكان بين الأمير معين الدولة سقمان الأرتقي وشمس الدولة جكرمش نزاع وكان كل واحد منهما يعد العدة لقتال الآخر ، فلما علما بتحرك الصليبيين شرقا أرسل كل واحد منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لقتال الصليبيين وتلافي أمر حران ويعلمه بأنه قد بذل نفسه لله تعالى، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ماطلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا ، وسارا إلى لقاء الصليبيين ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد ، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصافُّ بينهم هناك ، فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين، فعاد

عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا ، وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم ، ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن مؤن الأعداء كانت قريبة منهم .

وكان بيمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا بجنودهما، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيرًا وأسروا كذلك ، وأفلتا في ستة فرسان .

وكان بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من رؤسائهم، وخاضوا نهر البليخ فوصلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه، وكان سقمان قد سار فيمن معه لاتباع بيمند .

وسار سقمان إلى حصون الفرنج فاستولى على عدد منها، أما جكرمش فقد سار إلى حران فاستولى عليها .

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين مايقارب اثني عشر ألف قتيل[1].

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصارا كبيرًا لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما ، ولقد كان موقفًا عاليًا يذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ماكان بينهما من خلاف وتوجها معا للخطر المشترك عليهما ، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبق في أرض المسلمين أحد من الأعداء، ولاستطاعوا

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢١ - ٢٢٢ .

أن يُخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام ، وإنما يُؤتَى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم .

جهاد طغتكين مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين وأربعمائة أنه في شهر صفر جرت معركة بين أمير دمشق طغتكين والصليبيين بقيادة بغدوين أمير القدس وعكا وغيرهما ، وذلك بعد معارك جرت بينهما، ثم إن بغدوين بنى حصنًا بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من شرور ذلك ، فسار إلى الصليبيين والتقوا واقتتلوا أشد قتال ، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتموا به ، فقال طغتكين : من أحسن قتالهم وطلب مني أمرا فعلته له ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجَّالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي ، وأسروا من بالحصن ، فأمر بهم فقتلوا كلهم ،واستبقى الفرسان أسراء ، وكانوا مائتي فارس، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل [١] .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صورا من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتموا به إذا أغاروا على دمشق فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه ، وهدم ذلك الحصن ، ثم

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٣٠ .

فيمـا أقدم عليه من قـتل ذينك الأميرين الذين خانا الأمـانة وفرًّا إلى دمشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ الحروب، وهي تعطي دروسًا قوية بلـيغـة للقادة والجنـود حتى لايفـروا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل في صفوف الجيش .

واخيراً في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حـيث إنه لم يكن فـيمـا يظهـر عنده شيء من آلات الرمي الثـقـيلة كالمجـانيق فوجـه أفراد جـيشه بالإغـراء المذكور ليـقومـوا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكـثرة العدد و تظافر الجهود ، وهذا يدل أيضًا على حزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي .

* * *

٢ – جهاد عماد الدين زنكي مع الصليبيين –

هو عـماد الدين زنكي بن آق سنـقر بن عـبد الله آل ترغـان من قبائل « الساب يو » التركمانيـة ، وقد كان أبوه مقدما عند ملكشاه بن ألب أرسلان السلـجوقي ، ولما تولى مُلْك السلاجـقة بركـيا روق بن ملكشاه عيَّن آق سنقر على إمارة حلب وكـان حازما عادلا ، وبعد أن قُتل آق سنقـر انتقل ابنه عـماد الدين إلى الموصل في رعـاية حاكمـها القائد السلجوقي كربوقا الذي كان صديقا لوالده وكان عماد الدين في العاشرة من عمره ، ومازال بعـد أن بلغ سن الشباب موضع الثقة عند حكام السلاجقـة لما رأوا فيه من النبل والشجاعة، واشـترك مع الأمير مودود بن التونتكين في حروبه مع الصليبيين .

وفي عام واحد وعشرين وخمسمائة صار أميرًا على مدينة الموصل من قِبَل الـسلاجقـة ، وقد دفـعه طموحـه بعد ذلك إلى ضم مـنطقة الجزيرة وشمال الشام إلى سلطته وكـان ذلك بداية قوته وتوجهه لجهاد الصليبيين [١] .

معركته مع الصليبيين حول حمص :

كان من أبرز مـواجهاته مـعهم ماقـام به من مواجهـة جيش لهم كبير، أرادوا به مباغتته وهو مـحاصر حمص، وكانوا قد شعروا بتزايد قوته مع اتساع إمـارته فانسحب من حمص وأظهر عزمـه على حصار حصن « بعرين » المنيع الذي استولى عليه النصارى ، وقد استدرجهم

(١) عماد الدين زنكي للدكتور عماد الدين خليل / ٣١ – ١١٥ .
وكان حكم عماد الدين زنكي مابين عامي واحد وعشرين وواحد وأربعين وخمسمائه.

بذلك لاختيار الموقع المناسب ، وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة «فولك» ملك بيت المقدس، وريموند ملك طرابلس، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقَتْلِ وأسْر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، وكان ريموند من بينهم، أما فُولْك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين[1].

وهكذا أظهر عماد الدين براعة حربية حيث استدرج الصليبيين بعيداً عن مدينة حمص وقلعة بعرين حتى لايأتيهم منهما مدد، فاستطاع - بتوفيق الله تعالى - أن ينتصر عليهم وأن يأسر أمراءهم وقادتهم مع اجتماعهم لقتاله .

فتح حصن بعرين :

ثم تقدم عماد الدين زنكي لحصار حصن « بعرين » ، ونظراً لأهمية هذا الحصن فإن الصليبيين استنجدوا بملك الروم وبِدُوَل أوروبا قائلين إن عماد الدين إن استولى على هذا الحصن سهُل عليه القضاء على الممالك الصليبية في الشام ، وإن المسلمين لهم نية في استعادة بيت المقدس ، وقد جاء ملك الروم ومعه الأمداد الأوربية وأمراء النصارى في الشام ، ولكن بعدما تم استيلاء عماد الدين على ذلك الحصن .

(١) عماد الدين زنكي ، للدكتور عماد الدين خليل ، عن ذيل تاريخ دمشق ، والكامل ، والباهر / ١٤٢ .

مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم :

وقد أرسل عـماد الدين أمراء المسلمين لإمداده فـأمدوه، ولدهائه ودقة تخطيطه الحربـي استطاع أن يفرق جمع الأعداء، وكـان قد اتجه بقواته شـمالا وعسكر قرب حـماة والأعداء يحاصرون « شـيزر» التي تقع شمـال حمـاة، وكان عمـاد الدين يركب كل يوم في عسـاكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار .

ثم أرسل إلى أولئك الحلفـاء يقول لهم : إنكم قد تحـصنتم بهذه الجبال - المحيطة بشـيزر - فاخرجوا عنها إلى الصـحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم،ولـم يكن له بهم قوة لكثرتهم وإنما كان يفعل هذا ترهيبًا لهم.

وهكذا نجح عماد الدين في خـداعهم وإرهابهم ، حيث ظنوا أن معه جـيشًا كبـيراً وأن الذين يغيرون عليـهم كل يوم إنما هم سرية من سرايا عماد الدين .

هذا إضافة إلى استعماله المكائد للتفريق بين أولئك الحلفاء، حيث حذر صليـبيي الشام من اسـتيلاء أمـبراطور الروم على بلادهم، كـما أوهم هذا الامبراطور بأن نصارى الشام قـد تحالفوا معه ، فلذلك كله قرر ملك الروم الانسـحاب ، وفكَّ الحصار عن شيـزر في التاسع من رمضـان عام اثنين وثلاثين وخمـسمائة، واسـتولى عـماد الدين على آلاتهم الحـربية الثـقيلة ، كـما أرسل بعض قـواته لملاحقـتهم فقـتلوا وأسروا عددًا كبيراً منهم [1] .

---

(١) عماد الدين زنكي / ١٤٣ - ١٤٧ ، عن عدد من المصادر القديمة والحديثة .

فتح مدينة الرها :

أما أهم عمل قام به في جهاد الصليبيين فهو فتح مدينة « الرها» وذلك في السادس من جمادى الآخرة من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، وهي من أكبر مدن الجزيرة ، وفيها إمارة للنصارى قوية، ويتبعها عدد من قرى الجزيرة، وهي تحت إمرة« جوسلين» أقوى الصليبيين آنذاك وأشدِّهم دهاءً ومكرا ، وقد كان بلاؤه على المسلمين من حوله عظيما .

وقد كان عماد الدين يعلم أنه إذا قصد حصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة، فأظهر أنه سائر إلى ديار بكر ليوهم الفرنج أنه لايريد بلادهم، فلما علم بذلك جوسلين اطمأن وفارق الرها إلى بلاد الشام ، فجاءت عيون عماد الدين فأخبروه الخبر ، فنادى بالعسكر بالرحيل ، وجمع الأمراء، وقدَّم لهم الطعام ، وقال : لايأكلْ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غداً معي بباب الرها ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لايقدر على مساواته في الحرب . وسار والعساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أولَ من حمل على الفرنج، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين فاعترضه ذلك الأمير الذي سار معه فطعنه فقتله .

وقاتل أهل البلد ثمانيةً وعشرين يوما ، وقدَّم النقَّابين، فنقبوا سور البلد، حتى أسقطوا جزءاً منه ،فاستولى على البلد عنوة وحاصر قلعته حتى ملكها ، وجعل في البلد عسكراً يحفظه، ثم أغار على

القرى التي تحت سلطان الصليبيين فاستولى عليها، وبسقوط الرها زالت دولة الصليبيين في الجزيرة .

وبهذا الفتح علت سمعة عماد الدين زنكي عند المسلمين، وأضفى عليه الخليفة ألقابًا عالية ، وخاف منه الصليبيون والروم، وكان من أثر ذلك أن اتفقوا وقاموا بحملتهم الثانية التي تصدى لها ابنه نور الدين محمود بعد استشهاد أبيه رحمه الله (١) .

* * *

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/٨-٩ ، وانظر « عماد الدين زنكي ٧/١٤٩ .

٣ – جهاد نور الدين محمود مع الصليبيين –

هو نور الدين محمود بن عـماد الدين زنكي، تولى إمارة حلب، ثم اتسعت سلطنته حـتى شملت بلاد الشام والجزيرة ومصـر والحجاز واليمن ، وقـد اشتهـر بالعدل في الحكم ، حـتى قال عنه المؤرخ ابن الأثير : وقـد طالعت سِيَر الملوك المـتقدمين فلم أر فـيها بعـد الخلفاء الراشدين وعـمر بن عبـد العزيز أحسن من سـيرته ولاأكثـر تحريا منه للعدل (١) .

كما أنه قد اشـتهر بالشجاعة وحب الجهـاد ، وقد ذكر ابن الأثير من شجاعته أنه كان في الحرب يأخذ قـوسين ليقاتل بهما، وأن الفقيه القطب التساوي قال: بالله عليك لاتخاطر بنفسك وبالإسلام فإنك إن أُصبت في معـركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السـيف، فقال نور الدين : ومَنْ مـحمـود حتى يقـال له هذا ، مِنْ قبلي مَنْ حـفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو (٢) .

ولقد ظل رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى أضعفهم وقلص من وجودهـم في الشام ، وكان حُـلُمه الكبيـر أن يفتح بيـت المقدس ويطهـرها من الصلـيبـيين ولـكن وافـته المـنيـة في سنة تسع وسـتين وخمسمائة قبل أن يتحقق ذلك ، ولكن فتحها تمَّ بعد ذلك على يدي صلاح الدين الأيوبي .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ .

وقد استمر حكمه مابين عامي واحد وأربعين وتسعة وستين وخمسمائة .

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ .

معركة يغرَى :

ومن أخبار جهاده ماذكره العلامة المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حيث قال: في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه « يغرَى » من أرض الشام، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم نور الدين فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرَى ، واقتتلوا قتالا شديداً انجلت المعركة عن انهزام الفرنج ، وقُتل منهم كثير ، وأُسر جماعة من مُقدَّميهم، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل (١) .

استيلاؤه على حصن عزاز وماحوله :

وذكر في حوادث سنة ست وأربعين وخمسمائة أن نور الدين استطاع أن يأسر جوسلين الذي كان أعظم ملوك الفرنج شجاعة ودهاء، وكان قد استولى على قرى وحصونٍ شماليَّ مدينة حلب لما فقد إمارة الرها ، وكان نور الدين قد وضع عليه العيون، فلما خرج للصيد أبلغوا أبا بكر بن الداية نائبَ نور الدين على حلب فجاء بفرقة معه فأسره ، وقد فرح المسلمين كثيرًا بأسره لشدة أذاه عليهم، وأُصيب النصارى به لشدة غَنائه فيهم ، واستولى بعد ذلك نور الدين على قلاعه وحصونه ومنها عزَاز .

وقد مدحه الشعراء على ذلك ، ومما قيل فيه قصيدة للقيسراني يقول فيها مُعرِّضا بجوسلين :

طغى وبغى عَدْوًا على غلوائه   فأوبقه الكُفرانِ عَدْواه والكفرُ

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٢ .

وأمست عَزَاْز كاسمها بك عَــزَّةً تَشُقُّ عـلى النَّسْرَين[1]لوأنها وكـر
فسِرْوَا وَامْلِكِ الدنيا ضياءً وبهجةً فبالأُفق الداجي إلـى ذي السنا فقر
كأني بهــذا العزم لافُــلَّ حــدُّه وأقصاه بالأقصى[2]وقد قُضِي الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طهر[3]

معركة دلوك وفتحها :

ثم ذكر ابن الأثيـر في حوادث سنة سـبع وأربعين وخمســمائة أن الفرنج تجمـعت وحشدت الفارس والراجل ، وسـاروا نحو نور الدين وهو ببلاد جـوسلين ليمنعـوه من مُلْكِها ، فوصلـوا إليه وهو بدلُوك، فلما قربوا منه رجع إليهم ولقـيهم، وجرى المصافُّ بينهم عند دلوك، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، وصبـر الفريقان، ثم انهزم الفرنج وقُتل منهم وأُسر كثير ، وعاد نور الدين إلى دلوك فاستولى عليها، ومما قيل في ذلك :

أعدْتَ بعصرك هذا الأنيــ قِ فتـوحَ النبيٍّ وأعصــارَها
وكـــان مُهاجِــرُها تابعيــ ـك وأنصارُ رأيك أنصارَها
فجدَّدتَ إســلام سلمانها وعَـمَّـر جَـدُّك عَـمَّارَهــا[4]

فتح قلعة حارم :

ثم ذكر ابن الأثير أن نور الدين عزم على فتح قلـعة حـارم المنيعة

---

(١) النسران كوكبان وسميا بذلك تشبيها بالنسر الطائر .

(٢) أي المسجد الأقصى .

(٣) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٩ - ٣٠ .

(٤) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٢ .

وهي قرب أنطاكية ولها أهمية كبيرة عند النصارى ، وحاصرها وضيَّق عليها، وقد اجتمعت الفرنج لترحيله عنها ولكن أحد عقلائهم في القلعة أشار عليهم بعدم مواجهة نور الدين لعدم مقدرتهم على قتاله، ثم حاصرها مرة أخرى فصالحوه على تسليمه نصف أعمال القلعة .

ثم في المرة الثالثة عزم على فتح القلعة ، واستنجد بأخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة ، وبفخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وبنجم الدين ألبى صاحب ماردين، فأما قطب الدين فإنه سار مُجِدًا وفي مقدَّمته زين الدين علي أميرُ جيشه ، وأما فخر الدين صاحب الحصن فإنه استشار خواصه فقالوا : على أي شيء عزمت ؟ فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة ، وهو يُلقي نفسه في المهالك، فكلهم وافقه على هذا الرأي ، فلما كان من الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه: فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها ! فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أُنجِدْه خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا يَذكُرُ لهم مالقي المسلمون من الفرنج ومانالهم من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون علي، فلابد من المسير إليه ، ثم تجهز وسار بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سيَّر عسكرا .

فلما اجتمعت العساكر سار نور الدين نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق، وتابع الزحف عليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج ، فجاؤوا في حَدِّهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم ، وقسوسهم ورهبانهم ، وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون ، وكان المقدَّم فيهم البرنس بيمند صاحبُ أنطاكيه ، وقمص صاحبُ طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج، والدُّوك وهو مقدَّم كبير من الروم ، وجمعوا الفارس والراجل .

فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعا أن يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم ، فساروا فنزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم، فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون فيها ، وتبعهم الفرنج، فقيل كانت الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبَّروه، وهو أن يتبعهم الفرنج، فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا رَجْلاً يلجئون إليه ، ويعود المنهزمون في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فكان الأمر على مادبَّروه، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلا وأسرا، وعاد خيَّالتهم ولم يُمنعوا في الطلب خوفا على راجلهم، فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى،

فسُقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد هـلكوا، وبقوا في الوسط قد أحدق بهم المسلمـون من كل جانب ، فـاشتـدت الحرب، وكـثر القـتل في الفرنج، وتمت عليهم الهـزيمة ، فعدل حينئذ المـسلمون عن القتل إلى الأسـر ، فأسـروا مالايُحَـدّ، وفي جمـلة الأسرى صـاحب أنطاكيـة وصاحب طرابلس « القـمص» وكان شيـطان الفرنج وأشدَّهم شكيـمة على المسلمين ، والدُّوك مـقـدمُ الروم، وابن جـوسلين ، وكان عـدد القتلى يزيد على عشرة آلاف .

وقد فادى نور الدين بالأسرى عددًا كبيرًا من أسرى المسلمين .

وكـان للشـعراء دور طيب في الـثناء على نور الدين وتأييـده في حصار تلك القلعة وفـتحها ، ومن ذلك قصيدة لأحد الشـعراء أكتفي بذكر أبيات منها يقول فيها :

أَلَبَستَ ديـــــن محمد يانـورَه	عِـــزًّا لــه فـوق السُّها آسادُ
مـازلـتَ تشمله بميَّـــاد القنا	حـــتى تثقَّف عـــوده الميَّادُ
لم يبق مذ أرْهَفْتَ عزمك دونه	عـــدد يُراعُ بـــه ولااستعداد
إن المنابر لـــــو تطيق تكلُّمًا	حَمدتْك عن خطبائها الأعوادُ
مَنْ مُنكرٍ أن ينسف السيل الربا	وأبـــوه ذاك العـارض المدَّاد
لاينفع الآباءَ ماسمكوا من الـ	ـعلياء حتى يـرفــع الأولاد[1]

---

(١) الكامل في التاريخ ٤٩/٩ ، ٧٩ ، ٨٦ - ٨٧ .

وذلك في سنة إحدى وخمسين وخمسمائه ، وسبع وخمسين وخمسمائة وتسع وخمسين وخمسمائة .

وهكذا سعد المسلمـون بهذه الانتصارات الكبيـرة على الصليبيين بعد أن لقي منهم المسلمون عنتا شديدًا فجادت قرائح الشعراء بالقصائد العصمـاء في مدح الإمام العادل والمجاهد البطل نور الدين مـحمود، وإن هناك ما هـو أعظم من المدائح الشعـرية مما لايسطر في الكتب إلا قليلا ، ألا وهـو لهج ألسنة الصالحين بالدعـاء ، وهذا عند نور الدين وأمثاله أهم كثيرًا وأعظم .

ولقد أثبتت هذه الوقائع وغيرها أن نور الدين مع مااتصف به من الشجـاعة والإقدام كـان ذا رأي مسدد فـي الحرب، وإلى ذلك ترجع بعض انتصاراته على الأعداء .

فتح قلعة بانياس :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمـسين وخمسمائة أنه في ذي الحـجة من هذه الـسنة سار نور الدين إلـى قلعة بانيـاس، وهي بالقـرب من دمشق، وكـانت بيد الفـرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ولما فـتح « حارم » أَذِنَ لعسكر الموصل ودِيَار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهـر أنه يريد طبـرية ، فجـعل من بقي من الفـرنج هِمتَّهم حفظها وتقويتها، فـسار محمود إلى « بانياس» لعلمه بقلة من فيـها من الحماة المانعين عنهـا ، فنازل أهلها وضيَّق عليـهم وقاتلهم، وكان في جملة عـسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميـران، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كُشِف لك عن الأجر الذي أُعِدُّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى .

وجدَّ في حصارها ، فسمع الفرنج فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم

حتى فتحها، على أن الفرنج قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأَسْرِهم ، فملَك القلعة وملأها ذخائر وعُدَّة ورجالا، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرها عليها مالاً في كل سنة .

ووصل خبر استيلاء نور الدين على حصن حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر ، فصالحوا شيركوه [1] وعادوا ليدركوا بانياس ، فلم يصلوا إلا وقد استولى عليها نور الدين [2] .

فهذا الخبر فيه مواقف عالية لنور الدين محمود رحمه الله تعالى، فمن ذلك تخطيطه الحربي البارع، وذلك حينما أوهم أعداءه بأنه سائر إلى طبرية ، ثم عاد إلى بانياس، فكان استعداد الأعداء في غير المكان الذي قصد، وترتَّب على هذه الخدعة الحربية نجاحُه في الاستيلاء على بانياس .

وما عَمِلَه نور الدين من خداع الأعداء داخل في قول رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » [3] .

ومن ذلك عزاؤه البليغ لأخيه الذي فُقئَتْ عينه في الحرب، وهذا العزاء يدل على عمق إيمان نور الدين ورسوخ يقينه ، وعظمة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة .

---

(١) شيركوه هو أسد الدين الأيوبي وهو عم صلاح الدين الأيوبي ، وهو من أكبر قادة نور الدين ، وقد وجهه للاستيلاء على مصر وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين .

(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠ (٦/ ١٥٨) ، صحيح مسلم الجهاد، رقم ١٧٣٩ (٣/ ١٣٦١) .

فتح حصن المُنَيطرة وصافيثا وعريمة :

وهذه خدعة حربية أخرى يقوم بهـا نور الدين محمود، فقد ذكر المؤرخ ابن الأثير في حـوادث سنة إحدى وستين وخـمسمـائة أنه سار إلى حصن المُنَيطـرة - وكان بيد الفـرنج - بعدد قليل من جيـشه على غِرَّة منهـم ، وهو يعلم أنه لو جمع عـساكره حـذِرُوا ، فسـار إليهم وانتهز فرصة غـفلتهم ، فحاصره وجدَّ في قتال أصـحابه فأخذه عنوة وقَتل بعض رجاله وسبَى بعضـهم، ولـم يجتمع الفرنج للدفاع عنه إلا وقد استولى عليه ، فتفرقوا وأيسوا من رده [1] .

وهكذا تكُونُ إدارة الحروب الناجـحه : مكاسبُ كبيـرة في مقابل خسائر قليلة .

وقد استمر نور الدين في غزو الصليبيين في بلاد الشام ،فقد غزا بلادهم سنة ثلاث وسـتين وخمسـمائة فاسـتولى على بعض قـلاعهم وحصونهم ومنها « صافيثا وعريمة » [2] .

القضاء على حملة صليبية :

على إثر انتصـارات نور الدين المتاليـة في الشام واستـيلائه على مصر بعث الصليبيـون إلى دول أوربا يطلبون نجدتهم، ويخوفونهم من استيلاء نور الدين على بيت المقـدس، فأرسلوا لهم حملة وصلت إلى دمياط ، ولما علم بهم الصليبيـون في الشام أمدوهم بالجيوش ، وكان أسد الدين شيركوه قد مات وخَلَفـه على ولاية مصر ابن أخيه صلاح

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٩٤ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩ .

(٢) الكامل ٩/ ٩٦ .

الدين الأيوبي ، فأرسل الجيوش إلى دمياط، واستمد نور الدين فأمدَّه بالجيوش أَرسالاً وانتهز فرصة خروج جيوش الصليبيين إلى مصر فأغار على بلادهم في الشام واستولى على كثير منها وخرب كثيرًا من حصونهم ، وقد قاومهم صلاح الدين في مصر حتى هزمهم ، ورجعت الحملة الصليبية إلى أوربا خاسئة حسيرة، ورجع الصليبون إلى الشام فوجدوا نور الدين قد استولى على كثير من بلادهم، فخسروا الشام ولم يكسبوا مصر (١) .

وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا لنور الدين الذي وُفِّق برجال أكفاء أقوياء من أمثال أسد الدين وصلاح الدين .

حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين :

ذكر ابن الأثير حصار نور الدين حصن الكرك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البر ، فحاصره وضيَّق على أهله، ونصب عليه المنجنيقات ، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه ،وقد جعلوا على مقدمتهم ابن هنغري وفليب بن الرقيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، فرحل نور الدين نحو هذين المقدَّمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج ، وسلك نور الدين وسط بلادهم يفتح القرى، وأقام ينظر حركة الفرنج فلم يبرحوا مكانهم .

لكن إحدى سرايا نور الدين انتصرت على سرية من سرايا الصليبيين ، وكانت هذه السرية بقيادة شهاب الدين إلياس ، وكان قد

(١) الكامل ٩/ ١٠٥ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٩ .

سار إلى نور الدين ومعه مئتا فارس فصادف ثلاثمائة فارس من الصليبيين ، فاقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الصليبيون ، وعمهم القتل والأسر، ولم يفلت منهم إلا من لايعتد به (١) .

حملة تأديبية للصليبيين :

ومن أعمال نور الدين الجهادية تلك الحملة التأديبية التي قام بها لتأديب الفرنج لما استولوا على مركبين تجاريين للمسلمين، فقد قام بحملة واسعة فيما تبقَّى من أملاكهم حتى خضعوا وسلَّموا ماأخذوا بذلَّة وصَغار (٢) .

وهذا موقف جليل في إظهار عزة دولة الإسلام وحماية مصالح المسلمين .

مواقف نور الدين الأخلاقية :

أما مواقف السلطان نور الدين الأخلاقية في مجالات العدل والورع وخشية الله تعالى فهي كثيرة مشهورة فمن ذلك ماذكره المؤرخ ابن الأثير في بيان ورع السلطان نور الدين حيث يقول : حكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا وكذا، فقال: إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة

---

(١) الكامل ١٠٦/٩ .

(٢) الكامل ١١٣/٩ .

إلى كمال الدين ، فرده إلى الخـزانة مرة أخرى وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فـرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقـل لكم : يعاد هذا المال إلى أصحابه ؟! فذكروا له قول كـمال الدين فرده إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حـمله والمخاصـمة عليـه بين يدي الله تعـالى ، يُعادُ قـولاً واحدا[1].

فهذا الخبر فيه مثل مما كان يتصف به السلطان نور الدين من الورع وخشية الله تعالى والتحري في الأمـوال واتقاء الشبهات، فبالرغم من أن ذلك المال قـد أتى من طريق القاضي كـمال الدين الشـهرزوري - وهو المعروف بعلمه وتقواه - فإن نور الدين قد رفض قبوله ، لأنه قد دخل مجال الشبهات فخاف من أنَ يحاسب عليه يوم القيامة .

ومن أخبـار عدل السلطان نور الدين وتواضعـه أنه طُلِب مرة من أحد المدَّعين عليه فقـال أحد كبار موظفيه مسـتهزئًا : يقوم المولى إلى مـجلس الحكم !! فـأنكر نور الدين على الرجل سـخـريته وقـال : تستـهزئ بطلبي إلى مـجلس الحكم ؟ ثم قال: يُحـضَر فـرسي حتى نركب عليه ، السمع والطاعة قال الله تعالى﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٥١] ، ثم نهض وركب حـتى دخل باب

(١) نور الدين محـمود / ١٠٣ للدكـتور عمـاد الدين خليل نقلا عن التـاريخ الباهر لابن الأثير / ١٦٧ .

المدينة، واستدعى أحد أصحـابه وقال: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له : إني جئت ههنا امتثالا لأمر الشرع (١) .

وهذا موقف عالٍ من نور الدين بين فيـه إخلاصه وتجرده من حظ النفس وخـضوعه التـام لشريعـة الله تعالى ، فـهو لم يسـتنكف عن الحضور بين يدي القـاضي حينما قامت عليه الدعـوى ، بل استسلم لأمر الله جل وعلا وأمْر رسوله ،وقد أعاد بذلك سيرة الصحابة رضي الله عنهم ، حيث كان أمراؤهم يحضـرون مع خصومهم عند القاضي كأي إنسان آخر .

ولقد كـان في يوم من الأيام يلعب بالكرة في دمشق فـرأى رجلا من أتباعه يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعـلمه أن له مع نور الدين خـصومـة حول بعض الأمـلاك، وطلب حضـوره إلى مجلس القـضاء للفصل في المسـألة ، فتـردد الغلام في عـرض الموضوع على نور الدين ولكن هـذا ألح عليه، فلمـا تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له : إننـي قد جئت مـحاكمـا فاسلك معي مـاتسلكه مع غيري، فلمـا حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خـصمه، وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور ، هل ثبت له عندي حق؟ قـالوا : لا ، قال : اشـهدوا أنني قـد وهبت له هذا المال الذي حاكـمني عليه ، وقـد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حـضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه .

---

(١) نور الدين محمود / ٧٩ ، نقلا عن الروضتين لأبي شامة ١/١/٢٦ - ٢٧ .

قال ابن الأثير : تلك هي غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل [1] .

وهكذا رأينا السلطان نور الدين يضرب مثلا عاليا في الخضوع لشريعة الله تعالى ، وذلك بسرعة الحضور عند القاضي حينما دعاه، وقد كلل هذه المأثرة العالية في العدل بمأثرة أخرى في الإحسان حينما تنازل عن الحق الذي خوصم فيه لمخاصمه مع ثبوت حقه فيه، وهذا مثل جيد في النزاهة والعفة .

ومن روائع السلطان نور الدين في القضاء وإجراء العدالة والإنصاف من الأمراء والقادة إنشاء « دار العدل» في دمشق، وكان سبب إنشائها تزايد سلطان عدد من كبار الأمراء وتجاوز بعضهم حقوق بعض وعدم خضوع بعضهم لسلطة الحاكم الشرعي ، فلما علم بذلك نور الدين أمر ببناء دار العدل ، يقول ابن الأثير : فلما سمع شيركوه[2] ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ماأمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدى ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين [3] والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه ، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع مابيدي،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ ، وانظر « نور الدين محمود / ٧٩ عن الباهر لابن الأثير ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه كبير أمراء نور الدين وهو الذي استولى على مصر وقضى فيها على الصليبين والعبيديين .

(٣) هو قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري .

فـقالوا لـه: إن الناس إذا علموا هـذا اشتطُّوا في الطـلب ، فقـال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بِعَيْنٍ أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة - أي القضاء -، فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ماأمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغَتْ دار العدل جلس نور الدين فـيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعـرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا [1] .

وهكذا كان نور الدين موفقا في إنشاء محكمة عليا يتولى هو فيها الحكم على أمرائـه الذين قد لايتمكن الحـاكم الشرعي من السـير في إجراءات الحكم عليهم .

لقد كـان التفكير في إنشـاء دار العدل في غاية الروعة والسـمو، حيث أصبح بإمكان نور الدين أن ينصف جـميع المظلومين من ظالميهم وإن كانوا من أصحاب المناصب الكبيرة ، وكان مجرد إنشاء هذه الدار كافيا لإيقاف الظالمين من الولاة عن الظلم خشية أن يُستدعوا إلى تلك الدار فيوقفوا مع أصحاب الحقوق .

وهكذا يكون العدل الـكامل ، إن كمال العـدل لايكون بإنصاف المظلومين من الظالمين الضعفاء أو المتـوسطين فقط، وإنما يكون بشمول العدالة والإنصاف من جميع الناس وإن كانوا من الكبراء المتجبرين .

ويقول أبو شامة في بيـان عدالة السلطان نور الدين : « وكان نور الدين يجلس في دار العدل . . ويأمر بإزالة الحـاجب والبواب ، حتى

---

(١) نور الدين محمود / ٧٦ نقلا عن الباهر لابن الأثير / ١٦٨ .

يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فتغلب خصمها طمعا في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها من عدله، فيظهر الحق عنده، فيجري الله على لسانه ماهو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة » [1] .

وهكذا كانت إشاعة العدل سببا في تقوية الضعفاء حتى يأخذوا حقهم غير متعتعين ولاخائفين ، كما أنها كانت سببا في إضعاف الأقوياء الذين تميل نفوسهم نحو الظلم، فيحصل من ذلك ارتداعهم عن التفكير في الظلم ، وبهذا تتقلص قضايا الاعتداءات ، ويعيش الناس في أمن وأمان .

ومن ذلك ماذكره المؤرخ ابن الأثير عن رضيع الخاتون زوجة نور الدين قال : إنها قلَّت عليها النفقة ولم يكفها ماكان قد قرَّره لها، فأرسلَتْني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها [أي مخصصاتها المالية] ، فلما قلت له ذلك تنكَّر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! إنما هي أموال

---

(١) نور الدين محمود للدكتور عماد الدين خليل / ٧٦ - ٧٧ عن الروضتين ١/ ١/ ٣٣ والباهر / ١٦٨ والبداية ٢ / ٢٨٠ .

المسلمين ومُـرصـدة لمصالحـهم ومـعـدَّة لفتْـق - إن كان - من عـدو الإسلام، وأنا خازنهم عليـها فلا أخونهم فيـها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها .

قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين دينار[1].

فهـذا مثل من ورع السلطان نور الدين وعدله، فـهو يشبَّـه بعدله وورعه وزهده بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فقد غضب نور الدين لما سألته زوجته زيادةً في مـخصصاتها المالية، وتذكَّر حالاً نار جـهنم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وعظمـة خشيـته من الله جل وعلا .

ولقـد كان عظـيم الاهتمـام بالعـدل وتمكين المظلومين من إنهـاء قضاياهم إليه ، ذكر ابن قاضي شـهبة أنه كان يقول : حرام على كل من صحبني ولايرفع إليَّ قصة مظلوم لايستطيع الوصول إليّ ، ويقول خادمه شاذ بخت الطواشي الذي كان أحد نوابه في حلب: كنت يوما أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقـد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما ، وجعل ينكش بإصـبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ، في عائلته أو في وفاء دينه ؟! وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد ، فقال : والله إني أفكر في والٍ وليتـه أمور المسلمين فلم يعـدل فيهم ، أو فـيمن يظلم المسلمين من أصـحابي وإخواني ، وأخـاف المطالبة بذلـك أمام الله، فـبالله عليكم - وإلا فـخُبْـزِي عليكم حـرام - لاتريان قصـة مظلوم

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ وانظر « نور الدين محمود / ٤٠ نقلا عن الباهر / ١٦٤ .

لاترفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلِماني بها وارفعاها إلي [١] .

ففي هذا الخبر نجد نور الدين يستغرق طويلا في التفكير في أمور رعيته ، ويخشى من الله جل وعلا أن يحاسبه على الظلم الذي يقع على أفراد رعيته من ولاته ، وهذا يعني أنه قد تحرى العدل في حكمه المباشر ، ولكنه يخشى أن لايستقيم على ذلك ولاته، فيكون مشاركا لهم فيما يقع منهم من ظلم ، فكان لذلك همه الكبير واستغراقه في التفكير ، وهذا يجعله في الطريق المستقيم نحو النجاة من عذاب الله تعالى والظفر بنعيمه .

وكان رحمه الله عظيم الشوق إلى الجهاد، يحب أن يظل دائمًا مرابطا في سبيل الله تعالى ، وحينما ذهب إلى الموصل غادرها بعد عشرين يوما من دخولها عام ستة وستين وخمسمائة فقال له أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود ؟ فقال : قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت !! ويمنعني أيضا أنني ههنا لاأكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد [٢] .

ويقول أبو شامة : سمعت ابن شداد يقول : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه - يعني نور الدين - كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . . وكان كفار القدس يقولون : إن نور الدين له مع الله سرّ ، فإنه

(١) نور الدين محمود / ٧٥ نقلا عن الكواكب الدرية / ٢٥ .

(٢) نور الدين محمود / ٤٥ ، نقلا عن الباهر لابن الأثير ١٥٣-١٥٤ .

مايظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ومايردُّ يده خائبة فيظفر علينا [1] .

وهكذا كان اهتمام نور الدين موجها إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فهو يسعد ببقائه في البلاد التي يعتبر نفسه فيها مرابطا للجهاد، ولايحب البقاء في البلاد التي تحول بينه وبين الجهاد وإن كان في قرارة نفسه يحبها .

وفي الخبر الثاني تبين لنا سرّ من أسرار نجاح نور الدين في أكثر الحروب التي خاضها، ولقد أدرك الأعداء هذا السر لأنهم لهم خلفية دينية ، فهم من أهل الكتاب وقد ورثوا من أنبيائهم عليهم السلام بيان أهمية الصلاة ودعاء الله عز وجل في حصول النصر، فعزَوا سبب انتصار نور الدين الحربي إلى كثرة عبادته واتصاله بالله جل وعلا، والحق ماشهدت به الأعداء .

ومما يبين اهتمام نور الدين بالدعاء أن أصحابه قالوا له يوما : إن لك إدرارات كثيرة وصِلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فأجابهم غاضبا : والله إني لاأرجو النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صِلاتِ قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لاتخطئ ، وأصرفها إلى من لايقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطئ وقد

(١) نور الدين محمود / ٤٥ عن الروضتين ١/ ١/ ٣٤ .

تصيب ؟ ! ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب من بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم ؟ [(١)] .

فهذا الخبر يدل على فهم السلطان نور الدين الشامل لمقاصد الإسلام ، وعلمه الراسخ بأسباب النصر الحقيقية، فهو يجيب مستشاريه الذين أشاروا عليه بمنع المخصصات المالية عن العلماء والعباد وصرفها إلى الجهاد والمجاهدين . . يجيبهم بأن الصرف على أولئك المتقين إنما هو بالدرجة الأولى صرف على الجهاد لأن أولئك المتقين يملكون سلاح الليل الذي لايملكه غيرهم من الغافلين، ألا وهو الدعاء .

والدعاء المشروع إذا صدر من قلوب مخلصة مخبتة إلى الله تعالى فإنه يَمْضي في الأعداء أشد من السيوف البواتر والسهام المسدَّدة، والقادة من أصحاب التوفيق المسدَّد من الله تعالى والفكر الثاقب والوعي العميق لايُغفلون سلاح الدعاء ، بل يجعلونه في مقدمة عوامل النصر الحقيقية ، فيكثرون من الدعاء ، ويرغبون من الصالحين أن يدعوا لهم بالنصر على أعدائهم ، فيصلون بإذن الله تعالى إلى النتائج الباهرة من النجاح في مقاصدهم .

ومما يدل على اهتمام السلطان نور الدين بالاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في الأمور الجهادية ماذكره الشيخ أبو البركات : أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلدا سيفا ، فاستفاد نور الدين

(١) نور الدين / ١٠٩ ، نقلا عن الباهر ١١٨ ، والكامل لابن الأثير ١١/٢٩٦ .

أمرا لم يكن يعرفه وقال : كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف !! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم ، فلما كان من الغد مرَّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر إليه ، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك .

ويقول ابن قاضي شهبة في التعليق على هذه الحادثة : رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة ، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن ؟! (١) .

هذا وإن الاقتداء بالنبي ﷺ في هذا الأمر الصغير من السلطان نور الدين يدلنا على كمال اقتدائه به في الأمور الكبيرة ، ومن هذا الخبر نلمح شدة اهتمام نور الدين بالعمل الصالح وتطبيق السنة ، فهو يستمع للدروس العلمية لامن أجل متعة الفكر ولامن أجل الذكر بين الناس ، وإنما ليستفيد العلم من أجل العمل ، وهذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في طلب العلم وتعليمه .

* * *

(١) نور الدين محمود / ٨٩ نقلا عن الكواكب الدرية / ٤٠ - ٤١ .

٤ - جهاد أسد الدين شيركوه -

في عهد السلطان العادل نور الدين محمود كان للأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الأيوبي في جهاد الصليبيين في مصر جهود طيبة.

وكان سبب ذلك - على ماذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة - أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله العبيدي صاحب مصر، نازعه في الوزارة ضرغام وغلبه عليها، فجاء شاور إلى نور الدين وطلب منه أن يمده بجيش يستعيد به وزارته في مقابل أن يكون تابعا له ويبعث له ثلث دخل البلاد، وأن يبقى أسد الدين عندهم بجيشه، فشجعه على الاستجابة رغبته في التقَوِّي على الصليبيين حينما يحيط بهم جيش من الشام وجيش من مصر، وقد كان أسد الدين راغبا في ذلك لماَ عرف عنه من الشجاعة والإقدام، فوجهه نور الدين إلى مصر، فكانت مواجهةٌ بينه وبين ناصر الدين أخي ضرغام فانهزم ناصر الدين وعادت الوزارة لشاور، إلا أن شاور غدر بأسد الدين ولم يف بشيء مما وعد به، فانحاز أسد الدين إلى بلبيس، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن استولى على مصر، فجاؤوا من بلاد الشام وأحاطوا هم وجيش المصريين بأسد الدين في بلبيس، ولكنه استطاع أن يتحصن منهم بتلك المدينة رغم ضعف أسوارها، وكان يخرج لقتالهم بجيشه ثم يتحصن، وقد بقي على ذلك ثلاثة أشهر إلى أن بلغ الصليبيين أن نور الدين قد استولى على قلعة حارم التي هي من أمنع حصونهم، فطلبوا الصلح مع أسد الدين على أن يسلِّم مابيده إلى المصريين، ولم

يكن يعلم بما جرى لهم في الشام ، إضافة إلى أن الأقوات والذخائر قلَّت عنده كثيرا .

قال ابن الأثير: وخرج من بلبيس في ذي الحجة ، فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ من حديد، يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه، قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر[1] فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولايبقى لكم بقية !! فقال شيركوه: ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ماأفعله، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملكُ بلادهم ونُهلكُ من بقي.

قال الفرنجي : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم .

ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رصدًا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا، فعلم بهم فحاد عن ذلك الطريق ، ففيه يقول عمارة :

أخذتمْ عن الإفرنج كلَّ ثنية
وقلتَ لأيدي الخيل مُرِّي على(مَرِّي)
لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

(١) وهم الذين جاؤوا لزيارة بيت المقدس فاستعان به الصليبيون على القتال .

ولفظةُ (مَرِّي) في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج [1].

فهذا الخبر فيه مثل من خيانة بعض أمراء المسلمين آنذاك ووزرائهم حيث كانوا يتحالفون مع الصليبيين ضد المسلمين، وقد كان هؤلاء أشد بلاء على الأمراء المخلصين للإسلام من الصليبيين أنفسهم، وهذا الوزير وأمثاله كانوا من حكام الدنيا ، ولم يكن يهمهم أمر الدين .

أما موقف أسد الدين فقد كان مجيدا حيث ثبت للصليبيين وحلفائهم من المسلمين ثلاثة شهور ، ولم يستسلم لهم ولم يطلب منهم الصلح .

وفي حواره مع ذلك الصليبي تصوير رائع لشجاعة المسلمين، واستهانتهم بالمهالك في سبيل خدمة دينهم .

وفي آخر الخبر مثل من دقة الرصد الحربي عند المسلمين، حيث أراد الأعداء إهلاك المسلمين أو إضعافهم بالكمين الذي وضعوه لهم ليأخذوهم على غرة ، ولكن طلائع المسلمين اكتشفوهم فسلكوا طريقا آخر ، وفوتوا على الصليبيين تلك الفرصة .

معركة البابين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وخمسمائة خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى بلاد مصر حيث قال : فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الأول في جيش قوي، وسيّر معه نور الدين جماعة من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان كارها

---

(١) الكامل ٩/ ٨٤ - ٨٦ .

لذلك، ولكن لما رأى جدَّ أسـد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يُسـيِّر معه جـمعا خوفا من حادث يتـجدد عليهم فيضـعف الإسلام ، فلما اجتمع مـعه عسكره سار إلى مصـر على البر وترك بلاد الإفرنج على يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية، فقصد طفيح وعبر النيل عندها إلى الجـانب الغربي، ونزل بالجـيزة مـقـابل مصـر ، وتصرف في البـلاد الغربية، وحكم عليها ، و أقام نيفا وخمسين يوما .

وكان شـاور [ابن الخياط] لما بلغـه مجيء أسد الدين إليـهم قد أرسل إلى الإفرنج يسـتمدهم فـأتوه على الصعب والذلول طمـعا في ملكها، وخوفـا أن يملكها أسد الدين فلا يبـقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين ،فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم .

فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعـيد، فبلغ مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فـأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى .

قال ابن الأثير في سيـاق روايته : وكان [يعني أسد الدين] أرسل إلى المصريين والفـرنج جواسيـس فعادوا إليـه وأخبروه بكثـرة عددهم وعُـددهم وجِدِّهم فـي طلبه، فـعـزم على قتـالهم إلا أنه خـاف من أصحـابه أن تضعف نفـوسهم عن القـتال في هذا المقـام الخطر الذي عَطَبُهم فيـه أقرب من سلامتهم ، لقلة عـددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا -

وهو الذي يغلب على الظن - فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ؟

فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا . . . ثم ذكر كلامه في الحث على الثبات والإقدام على قتال الأعداء .

قال : فقال أسد الدين : هذا الرأي وبه أعمل، وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله ، وكثر الموافقون لهم ، واجتمعت الكلمة على القتال .

فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها ، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه : إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أني فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدُقوهم القتال، ولاتُهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدَّامهم بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار هو من شجعان عسكره جمعًا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ماذكره وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين، ومعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معهم على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج، الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر ، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم قفرا فانهزموا أيضًا .

وكان هذا من أعجب مايُؤَرَّخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل [1].

في هذا الخبر مثل من الشجاعة الفائقة والخطط الحربية الناجحة، فقد صمد ألفان لجيش يفوقهم عدة أضعاف في العَدد والعُدد وتغلبوا عليهم ، ولقد كان من أسباب هذا التفوق أن جيش أسد الدين كانوا يقاتلون عن إخلاص لقضيتهم ، فكانوا يبذلون قدرًا كبيرًا من طاقتهم.

ومن أسباب ذلك ماقام به أسد الدين من إعداد تلك الخطة الحربية الرائعة التي فرَّقت قوة الأعداء وشلَّت من حركتهم ، فقد كان لها الأثر الأكبر في انتصاره وخذلان أعدائه .

ولايغيبنَّ عن البال أن الذين حضروا المعركة من المصريين كانوا من النفعيين الذين رضوا بأن يقفوا مع الصليبيين في صف واحد ، أما أهل الاستقامة فإنهم مبعدون عن إدارة الأمور والمشاركة في الحروب لفساد الحكم آنذاك ، ومما يدل على ذلك أنه لما توجه أسد الدين إلى الاسكندرية ساعده أهلها وتسلَّمها بدون قتال، لأنهم يتمنون حكمه بدلا من حكم عملاء الصليبيين ، وحينما حاصرها الصليبيون وعملاؤهم صمد أهلها مع صلاح الدين ثلاثة أشهر وكان أسد الدين قد أنابه عليها [2].

ولقد كان للمسلمين المصريين الصادقين مواقف عالية في نصرة

---

(١) الكامل ٩/ ٩٤ - ٩٥ .

(٢) الكامل ٩/ ٩٥ .

الإسلام والمسلمين ، فعلى يد جيشهم - بالدرجة الأولى - تم دحر التتار الذين عاثوا فساداً في بلاد الإسلام بقيادة قطز في معركة عين جالوت ، وبمشاركتهم الفعالة تم القضاء على الصليبيين في الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين .

ومع هذا الانتصار الكبير لأسد الدين فإنه قد رحل بجيشه عن مصر، ولعل سبب ذلك قلة جيشه حيث لايتمكن من إبقاء حوامي في البلاد التي يستولي عليها، لكنه عاد بجيشه بعد سنتين إلى مصر لما قوي أمر الصليبيين فيها ، وكانوا قد أبقوا بعض شجعانهم في مصر يشرفون على الحكم فيها ويتولون جباية الأموال المقررة لهم على أهل مصر، وقد حكموا على المسلمين حكما جائراً وآذوهم أذى شديداً.

ولما رأى هؤلاء النصارى ضعف الحكم في مصر كاتبوا أمير النصارى في الشام وهو « مَرِي » وهو من أشدهم شجاعة ومكراً ودهاء ، فزينوا له غزو مصر لخلوها من المدافعين عنها ، وقدْ فَهِم لدهائه أن ذلك خطر على النصارى في الشام ، لأن ذلك يُحرِّض نور الدين عليهم، وأنه لو أرسل أسد الدين إليها لكان هلاك النصارى في الشام لأن نور الدين سيغزوهم من الشمال والشرق وأسد الدين سيغزوهم من الجنوب ، ولكنه لم يستطع إقناع كبراء دولته الذين أصروا على غزو مصر بحجة أنهم سيملكونها قبل أن يتحرك نور الدين. وَجَدَّ النصارى في السير إلى مصر ، واستولوا على بعض بلادها، وكان أمير مصر العاضد العبيدي، ووزيره شاور وهو الذي بيده الحكم .

وأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع النصارى ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهم من الفرنج، فشرع في تسيير الجيوش وكان قبل ذلك قد علم بتحرك الفرنج فبدأ يضم جيوشه إليه .

أما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها، فراسلهم شاور وذكر لملك الفرنج مودته لهم وخوفه من أن يقدم جيش نور الدين فيستولي على مصر ، واتفقا على الصلح على أن يدفع شاور للفرنج ألف ألف دينار ويرجعون إلى بلادهم، فاستطاع أن يعطيهم مائة ألف واستمهلهم في البقية حتى يجمعه من الناس ولكنه لم يستطع ذلك لأنه كان قد أحرق بلادهم حتى لايستولي عليها الفرنج فذهبت أموالهم .

وقد توالت كتب أهل مصر إلى نور الدين يستمدونه ويطلبون منه إنقاذهم من الصليبيين ، فبعث إلى أسد الدين ليولِّيه على جيش مصر وكان في حمص حيث كان واليا عليها، فما شعر به نور الدين إلا وهو على أبواب حلب ففرح نور الدين بقدومه وتفاءل من ذلك، وكان أسد الدين قد وصلته أيضًا كتب استغاثة من مصر، فأمر نور الدين بتجهيز الجيش ، وأعطى أسد الدين مائتي ألف دينار للإنفاق على الجيش سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأعطاه حرية التصرف في إدارة الجيش ومواجهة الأعداء ، واختار من العسكر ألفي فارس إلى جانب ستة آلاف من غيرهم، وبعث معه نور الدين

عـددًا من الأمـراء ، ومنهم صـلاح الدين بن يوسف ابن أخي أسـد الدين وكان صـلاح الدين كارها لذلك المسـير لِماَ واجـهه من الأهوال حينما حوصر في الإسكندرية، ولكن نور الدين ألزمه بالمسير مع عمه .

وسار أسد الدين مُجدًا مُنتصَفَ شهر ربيع الأول ، من عام أربعة وستين وخمسمائة ، فلمـا قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخُفَّي حنين خائبين، وسـمع بذلك نور الدين ففرح به وأمر بضـرب البشائر في البلاد ، واعتبر رحيلهم فتحًا وهزيمة كبرى لهم .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة واجتمع بأمـيرها العاضد وفرح به أهل مصر .

أما شاور بن الخياط وزير حاكم مصر فإنه ساءه مجيء أسد الدين شيركوه وعزم على دعوته ثم القبض عليه، فنهاه ابنه الكامل وقال له : والله لئن عزمت عـلى هذا الأمر لأُعَرِّفنَّ شـيركوه ، فـقال له أبوه : والله لئن لم نفعل هذا لنُـقتلنَّ جميـعا ، فقال : صـدقت ولأَنْ نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خـير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئـذ لو مشى العاضد إلى نـور الدين لم يرسل معه فارسـا واحدًا ويملكون البلاد ، فترك شاور ماكان عزم عليه .

ولعل أمراء أسد الدين عرفوا بماعزم عليه شاور فعزم بعضهم على قتله وعلى رأسهم صلاح الدين فنهاهم عن ذلك أسد الدين، ولكنهم ظلوا على عزمهم ، وانتهزوا فرصة مجـيئه مع حاشيته يسأل عن أسد الدين فأخبروه أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي فسايره صلاح الدين

ومن معه وألْقَوه عن فرسه وهربَتْ حاشيته فأخذوه أسيرًا ولم يُمكنهم قتله إلا بعد إذن أسد الدين فحضر ولم يُمْكنه إلا إتمام مابدؤوا به .

وسمع بذلك أمير مصر العاضد فطلب رأس شاور وتابع الرسل في ذلك فقُتل وأُرسل إليه رأسه في السابع عشر من ربيع الآخر، وتجمهر الناس فأمرهم العاضد بنهب دار شاور فانتهبوها .

وسار أسد الدين إلى قصر العاضد فقلَّده الوزارة ولُقِّب المنصور أميرَ الجيوش ، وصار هو صاحب الأمر والنهي في مصر، ولكنه لم يُمْهَل طويلا حيث توفي في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام (١) .

ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : أن الحاكم الصالح يحفظ الله تعالى به البلاد والعباد، ويحميهم بحسن تدبيره من شرور الأعداء ، ويتحقق على يديه الأمن والرخاء ، وذلك لأنه يختار لمؤازرته وتدبير أموره أهل الاستقامة والشجاعة والرأي السديد ، فيستخلص أفضل عناصر الأمة ليكونوا هم الذين يدبرون أمورها ويحمونها ،ففي السلم أمن ورخاء ، وحماية للضعفاء من ظلم الأقوياء ، فإذا دهم العدو البلاد قام الرجال الأكفاء لحمايتها وفَدَوا أمتهم بأرواحهم وأموالهم .

أما الحاكم النفعي الذي لايهمه إلا مصالحه الخاصة فإنه يخشى من أهل الكمال والفضل لأنهم لايوافقونه على تجاوزاته ، فيقرِّب النفعيين من أمثاله الذين لايهمهم إلا مصالحهم ، ويستوي عندهم أن يحكمهم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/٩٩ - ١٠١ .

حاكم مسلم أو كافر، ففي السلم ظلم واعتداء على الآمنين، وتسلط من الأقوياء على الضعفاء ، فإذا دهم البلاد عدو فإن هؤلاء النفعيين لايستطيعون حمايتها لأنهم متفرقون حيث لايجمعهم هدف واحد مشترك ، بل هدف كل واحد منهم تأمين مصالحه الخاصة .

وهكذا كان وضع بلاد مصر في ذلك الزمن ، حيث استولى عليها الصليبيون دون مقاومة .

هذا الشعب العظيم الذي لم يستطع حماية بلاده من الصليبيين هو الذي كان له إسهام كبير في القضاء على الصليبيين في الشام بعد سنوات معدودات ، وكان الفارق بين الأمرين هو تغيُّر السلطة الحاكمة، حيث انتقلت إدارة البلاد من العُبَيديين إلى الأيوبيين، وذلك بما قام به صلاح الدين الأيوبي من إبعاد النفعيين وتقريب أهل الكفاءة والأمانة .

ثانيًا : من حسنات نور الدين محمود أنه اختار أسد الدين شيركوه الأيوبي لقيادة جيوشه في عدة وقائع مع الصليبيين ، وكان شجاعًا مقداما ، ومع ذلك فإنه كان ذا رأي حصيف في تدبير الحروب، وقد طارت له سمعة عالية بين أعداء الإسلام من النصارى حتى صار اسمه مرعبا لهم ، ولاأدل على ذلك من قول الكامل بن شاور إنك إذا قبضت على شيركوه عاد الفرنج واستولوا على البلاد، فقد كان معلوما لدى المجتمع آنذاك أن جلاء الفرنج من مصر كان بسبب رعبهم من أسد الدين لشجاعته وطاعة جيشه له .

ثالثًا : موقف جليل للكامل بن شاور حيث نهى أباه عن تدبير

خطة للقبض على أسد الدين شيركوه وأبان له بأن مصلحة مصر والإسلام في بقاء أسد الدين حتى لايرجع الصليبيون إلى مصر، وهذا يدل على إخلاصه للإسلام ولأمته .

* * *

٥ - جهاد صلاح الدين الأيوبي -

هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ، ولد بتكريت في العراق، وانتقل به أبوه إلى الشام حيث أصبح أبوه من أمراء نور الدين محمود، ثم أصبح صلاح الدين من قادته وشارك عمه أسد الدين شيركوه في القضاء على الصليبيين والعبيديين في مصر، إلى أن آل إليه حكم مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه .

ولما توفي السلطان نور الدين محمود صار بين صلاح الدين وأبناء نور الدين نزاع حتى آل الأمر إلى ظهور صلاح الدين وشملت سلطنته مصر والشام والجزيرة وغيرها .

وكان رحمه الله عادلا كريماً حليما صبورا على مايكره، ومن أخبار زهده وكرمه أنه مات ولم يخلف إلا ديناراً وأربعين درهما، مع سعة سلطانه (١) .

غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة :

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين الأيوبي سار في عام ستة وستين وخمسمائة من مصر وأغار على أعمال عسقلان وغزة وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن كاد أن يؤخذ أسيرا .

---

(١) الكامل ٩/ ١٠٢ ، ١٣٠ ، ٢٢٥ ، وكانت إمرته على مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، وذلك في عام أربعة وستين وخمسمائه وذلك في أواخر حكم العاضد الحاكم العبيدي الذي كان حاكما بالاسم فقط ، ثم ضم صلاح الدين إلى حكمه الشام وغيرها بعد وفاة نور الدين إلى أن توفي في عام تسعة وثمانين وخمسمائة .

وعاد صلاح الدين إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال في البر ، وقصد أيلة ، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيلة برًا وبحرًا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر[1] .

موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة سبعين وخمسمائة أن أسطولا بحريًا حربيا خرج من صقلية لغزو مصر ، وهو مكون من مائتي سفينة تحمل الرجال وست وثلاثين تحمل الخيل ، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأزواد، وأن عدد المقاتلين خمسون ألفا من الرجالة وألف وخمسمائة من الفرسان، وكانت تلك الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة عام تسعة وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة .

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة ، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات ، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم .

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو

---

(١) الكامل ٩/ ١١٠ .

عنهم ، ودام القتــال أول يوم إلى آخر النهــار ثم عاود الفرنج القــتال اليوم الثاني وجدُّوا ولازمــوا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ، ووصل ذلك اليــوم من العساكــر الإسلاميــة كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقــويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القــتال والصــبر ، فلمــا كان اليــوم الثالــث فتح المسلمــون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارُّون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتــد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته، ولم يزل القــتــال إلى آخــر النهــار ودخل أهــل البلد إليــه وهم فــرحــون مســتبشــرون بما رأوا من تباشيــر الظفر وقــوتهم وفشل الفرنج وفــتور حربهم وكثر القتل والجراح في رجالتهم .

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسيَّر مملوكا له ومــعه ثلاث جنائــب ليجــدَّ السيــر عليــها إلى الإســكندرية يبشــر بوصوله، وسيــر طائفة من العسكر إلى دميــاط خوفا عليها واحــتياطا لهــا، فسار ذلــك المملوك فوصل الإسكندرية من يومــه وقت العــصر والناس قــد رجعــوا من القــتــال فنادى في البلد بمجيء صــلاح الدين والعساكر مسرعين، فلمــا سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال مابهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله .

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عــساكره فسُقط في أيديهم وزادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى

خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة ، وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربّوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين، واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم [١] .

في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة ، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي .

ولقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرا في العَدد والعُدد ، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم .

ونجد في هذا الخبر موقفا فدائيًا في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فغرقوها ، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٢٩ - ١٣٠ .

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيراً من جنودها وعدداً كبيراً من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل.

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام ، فإن الجهاد يجب على كل قادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء.

موقعة حِطِّين (١) :

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام ومعه جيش من مصر وممن قدموا معه من الشام ، فلما وصل أرسل إلى بقية أطراف الشام وإلى المشرق يطلب اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين ، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة، وذلك في عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة .

واستشار صلاح الدين أمراءه في كيفية قتال الأعداء ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يُضعف الصليبيين بشنِّ الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة ، فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لاتجري بحكم الإنسان ، ولانعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد .

ثم سار بجيشه حتى خلَّف طبرية خلف ظهره، وتقدم حتى قارب

---

(١) هي قرية قرب طبرية وقعت حولها المعركة .

الصليبيين وهم في خيامهم لم يفـارقوها، فأمر العسكر بالنزول، فلما جنَّه الليل جـعل في مقابل الصلـيبيين من يمنعـهم من القتـال، وسار بطائفة من الجيش إلى طبرية وقاتل أهلها ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بهـا إلى القلعة التي لها فامـتنعوا بها، وفيها أميرتها النصرانية ومعها أولادها .

فلما سمع الصليبيون بذلك اجتمـعوا للمشورة فاستقر رأيهم على التقدم لقتال المسلمين ، وهذا هو الذي أراده صلاح الدين من مهاجمة طبرية ، وتقدموا حتى قربوا من معسكر المسلمين .

فلما سمع بذلك صلاح الدين عاد من طبرية ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء ، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الصليبيون العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك المـاء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ماهناك من الصهاريج، ولم يتـمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم .

أما المسلمون فإنهم باتوا يحرض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكلما رأوا الصليبـيين على خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمـعهم وجـرأتهم، فأكثـروا التكبير والـتهليل طول ليلتهم، وكـان السلطان صلاح الدين قد عـبَّى جيشه ونظمـه وجعل الرماة في المقدمة .

يوم المعركة :

أصبح صلاح الدين والمسلمـون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، فركبوا وتقدموا إلى الصليبيين، فركب الصليبيون ودنا بعضهم

من بعض ، وأمر السلطان الرماة أن يرشقــوا الأعداء بنبالهم ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبيــر والحملة الصادقة فحمل المسلمون على أعــدائهم فاقــتتلوا أشــد قتــال، وصبر الفــريقان ، وأثخــن رماة المسلمين في الأعداء فقتلوا كثيرا من خيولهم .

وتوجه الصليبيون نحــو طبرية لعلهم يَرِدُون الماء، فلما علم صلاح الدين بمقــصــدهم صــدهم عن مــرادهم ، ووقف بالعــسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، والناس مطيعون له.

وقد حمل مملوك من مماليك صلاح الدين على الأعداء حملة قوية فقاتل قــتالا عجب منه الناس، ثم تكاثر الأعداء عليه فــقتلوه ، فعند ذلك حمل المسلمــون حملة قويــة ضعضعــوا بها الكفــار وقتلوا منهم كثيرا.

ولما اشتد القتال عليهم أدرك « القمص» حاكم طرابلس أنه لاطاقة لهم بقتال المسلمين فاتفق هو وجمــاعة وحملوا على من يليهم، وكان المقدَّم في تلك الناحية تقيُّ الدين عــمر بن أخي صلاح الدين، فأدرك أنهم منهــزمون يريدون الفــرار فأمر أصــحابه أن يفــتحوا لهــم طريقا يخرجون منه .

فلما انهزم القمص فتَّ ذلك في أعضــادهم وكادوا يستسلمون ، ثم علموا أنه لاينجيهم من الموت إلا الإقدام عليــه ، فحملوا حملات متــوالية كــادوا يزيلون المسلمين - على كثــرتهم - عن مواقــفهم لولا لطف الله تعالى بهم .

وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض نارًا وكان الحشيش

كثيراً فاحترق ، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إلى الأعداء، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال.

ولم ينفع الأعداء إقـدامهم ومحاولة كسب المعـركة لأنهم في كل حملة يفقدون عدداً كبيراً منهم لشدة ثبات المسلمين وبسالتهم ، فوهن الأعـداء لذلك وهنا عظيـمـا، فأحـاط بهم المسلمـون إحـاطة الدائرة بقطرها، فـارتـفع من بقي منهم إلى تل بـناحـيـة حطين، وأرادوا أن ينصبـوا خيامـهم ويحموا نفوسـهم به فاشتـد القتال عليـهم من سائر الجهات، ومنعهم المسلمون عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة إلا خيمة ملكهم .

وأخـذ المسلـمـون صليـبـهـم الأعظم، الذي يسـمـــونه صليب الصلبوت، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك .

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيـفة من الصليبيين ، يقول الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي : كنت إلى جـانب أبي في ذلك المصافّ ، وهو أول مَصَافّ شاهدته ، فلمـا صار مَلِك الفرنج على التل في تلك الجـمـاعة حـملوا حـملة منكرة على مـن بإزائهم من المسلمين حـتى ألحـقوهم بوالدي ، قـال : فنظرت إليـه وقد عَلَـتْه كـآبة واربْدّ لونه وأمسك بلحيـته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قـال : فعاد المسلمون على الفرنج فـرجعوا فصعـدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمـون يتبعونهم صحت من فـرحي : هزمناهم ، فعاد

الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل مافعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضًا هزمناهم ، فالتفت والدي إلي وقال : اسكت ، مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي إذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرياط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدَّم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا .

وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين وانهزام ساحق للصليبيين، وقد كثر فيها القتلى والأسرى منهم حتى إن من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدًا ، وماأصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمثل هذه الوقعة ، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفا وبلغ عدد الأسرى منهم ثلاثين ألفا .

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله البرنس

صاحب الكرك، فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ، ثم كلم البرنس وقرَّعه بذنوبه وعدَّد عليه عوراته ، ومن ذلك أنه سب الرسول ﷺ ، وعزم على غزو مكة والمدينة ، وقتل الحجاج غدرا ، وكان صلاح الدين قد نذر مرتين أن يقتله إن ظفر به ، فقام إليه بنفسه فقتله ، فلما قتله وسحُب وأُخرج ارتعدت فرائص ملك الصليبيين فسكَّن السلطان جأشه وأمَّنه (١).

هذه المعركة العظيمة تعتبر من المعارك الفاصلة في حياة المسلمين ، حيث ترتب عليها فتح القدس وكثير من المدن والحصون التي كان الصليبيون قد استولوا عليها .

وهذا اللقاء الكبير هو الذي كان يخطط له نور الدين محمود حينما بذل جهودا كبيرة في توحيد بلاد الشام ومصر حيث كان لايستطيع في بلاد الشام وماجاورها أن يجمع نصف هذا الجيش، فكانت كل حروبه تقليصا لوجود الصليبيين وإضعافا لهم ، ولكن حينما انضمت مصر إلى سلطنته خطط لحرب شاملة يطوِّق بها الصليبيين من الشمال والجنوب ، ولكن وافته المنية قبل أن يتم ذلك، فاستثمر صلاح الدين تلك الجهود الكبيرة وأكمل مابدأه نور الدين ، وكانت على يديه هذه المعركة الكبيرة الفاصلة .

وقد ظهرت لصلاح الدين وجيشه مواقف عالية ، منها أولا : رأيه في مواجهة الأعداء الذي خالف فيه قادته حيث كان رأيهم تفريق

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/ ١٧٦ - ١٧٩ .
والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٣٤١ - ٣٤٣ .

الجيش في سرايا تهاجم حصون الأعداء حتى يتم إضعافهم، بينما كان رأيه مواجهة جمع الأعداء بجمع المسلمين ، فكان رأيه أسدَّ من آرائهم وأعظم نفعا للمسلمين ونكاية في أعدائهم .

ثانيًا : إغارته على طبرية ليلجئ الأعداء إلى مغادرة مكانهم ومواجهته في المكان الذي أراد أن تكون المعركة فيه ، فكان له ماأراد ، وكان ذلك من عوامل انتصار المسلمين واندحار أعدائهم .

ثالثًا : أن أفراد الجيش الإسلامي ظلوا طوال ليلة المعركة يكبرون الله تعالى ويهللون ، وقد جاء في بعض الأخبار أن صلاح الدين كان يتفقد جيشه تلك الليلة فوجدهم مابين ذاكر ومصلٍّ وتالٍ لكتاب الله تعالى ماعدا أصحاب خيمة واحدة وجدهم نياما ، فقال : إن أُتينا غدا فإنما سنُؤْتَى من هذه الخيمة فأيقظ أهلها وسرَّحهم إلى دمشق .

وهذا يدل على وعي السلطان صلاح الدين وفهمه الثاقب لعوامل النصر الأساسية ، كما يدل على صلاح أفراد ذلك الجيش الذي تم على يده النصر الحاسم للإسلام والمسلمين .

رابعًا : في تلك المعركة انتصر المسلمون على عدو يبلغ أضعافهم، حيث جاء في نهاية خبر المعركة أن عدد قتلى الصليبيين ثلاثون ألفا وعدد أسراهم ثلاثون ألفا ، وقد استطاع ثلاثة آلاف منهم الفرار، وهذا يعني أنهم كانوا ثلاثة وستين ألفا ، بينما كان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفًا سوى المتطوعين الذين لم يُذكر عددهم، والظاهر أن عددهم قليل لايلفت النظر إذ لو كانوا كثيرين لكان هناك اهتمام ببيان عددهم، فالمسلمون إذًا واجهوا أضعافهم، إضافة إلى

عامل مـهم ظاهره أنه لصالح المسلمين وحقـيقته أنه لصـالح الأعداء، وهو كـون الأعداء قـد حيل بينهم وبين المـاء ، وليس بينهم وبينه إلا جيش المسلمين ، وهذا عادةً يكون دافعا إلى استماتة المقاتلين وإقدامهم ليختـرقوا صفوف أعدائهم حتـى يصلوا إلى الماء ، وقد كان ذلك من الصليبيين ، ولكنهم وُوْجِـهوا بثبات قوي وبسـالة عالية من المسلمين، حيث استطاعوا صد هجماتهم وإعادتهم إلى الوراء أكثر من مرة .

وقد جرى على المسلمين قديما - بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - موقف مشابه ، حيث واجهـوا أعداءهم وليس معهم ماء وكان الأعداء على الماء ، فشكى المسلمون هذا الأمـر لخالد فأفادهم بأن الماء سيـصيـر لأصبر الفـريقين ، وصار للمـسلمين الذين صبـروا وهزموا أعداءهم من الفرس .

خامسًا : من المواقف العالية للسلطان صلاح الدين الأيوبي أنه لما حـمل الأعداء حـملة شديدة على المسـلمين وتراجع المسلمون حـتى لحقوا به قـال : « كذب الشيطان » فهذا دليل على أنه لم يعـتمد على الأسبـاب المادية وإنما كان حاضـر القلب مع الله تعالى مـدركا أنه هو ولي المؤمنين وأن الشـيطان ولي الكافـرين ، فهـو بهذا الكلام يدحـر الشيطان الرجيم الذي يفـرح بما ينال المسلمين من هزيمة ، ويُشعره بأن ظنونه كـاذبة وأن مـاحـصل للمـسلمين إنما هو أمـر عـارض ، وأن المسلمين سيثبتون وستكون نهاية المعركة لصالحهم .

إن أول ماتبـادر إلى ذهنه من هول ذلك المشهد هو دحـر الشيطان وتكذيب ظنونه، وهذا يعني أن فـكره مرتبط برجـاء نصر الله تعـالى

وتأييده ، ليخيب ظن الشيطان وجنوده ، وهذا يكشف لنا عاملا مهما من عـوامل نجاح السلطان صـلاح الدين في إقامـة دولة كبـرى تحكم بالإسلام وتتحاكم إليه وتنصره وتدافع عنه .

فتح بيت المقدس :

كان فتح بيت المقدس هو الهدف الأعظم من كل الجهاد الذي قام به السلطان نـور الدين مـحـمود ومـن بعـده السلطان صـلاح الدين الأيوبي.

ولقد كان من براعة صلاح الدين وتخطيطه الحربي العبقري أنه بدأ بالاسـتيـلاء على المدن السـاحلية التي بيـد الصليـبيين حـتى لاتكون محطات لنزول حملة صليبية جـديدة ، ولقد كان الاستيلاء على بيت المقدس من قِبَل المسلمين أمرًا كبيرا على النصارى في العالم، فقد كان هناك احتـمال أن يقوم المنكوبون في حطين بطلب النجـدة من الممالك الأوربية ، فـبدأ صلاح الـدين بأقرب بلد إليه وهي طبـرية فاسـتولى عليها، ثم فتح مدينة عكا بعـد حصارها والصلح مع أهلها ثم راسل أخاه العـادل نائبه على مصـر ليغزو المدن الساحليـة القريبة منه فـفتح «مجدل يابا » و « يافا » .

ثم فرّق صـلاح الدين عسـكره مدة إقامـته بعكـا ، ففتح قـادته الناصرة وقـيسارية وصفـورية ومعليا والشـقيف والفولة وغـيرها من البلدان المجاورة لمدينة عكا .

ثم تولى صلاح الدين فـتح مدينة بيروت وصيدا وتـبنين وجبيل، وبقي من المدن الساحلية الشـمالية مدينة صور التي تجمَّع بـها أكثر من

خرجوا من بلادهم من النصارى وولّوا أمرهم « المريكش» أحد التجار القادمين عليها ، فكان أمرها يحتاج إلى مرابطة طويلة فتركها صلاح الدين حتى لاتشغله عن فتح بيت المقدس .

وقد رجع السلطان جنوبا إلى القدس ولكنه قدَّم عليها عسقلان فحاصرها بعد أن التقى بأخيه العادل نائبه على مصر ومعه جيش من مصر، ففتحها صلحا بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، ثم بث السرايا ففتح غزة والرملة والداروم وغيرها (١) .

ولما تم فتح ماحول القدس وتم تأمين الساحل توجه السلطان صلاح الدين بجيشه نحو بيت المقدس وكان بها جمع كثيف من النصارى إلى جانب من لجأ إليها من موقعة حطين ومن عسقلان وغير ذلك ، وكانوا جميعا يرون الموت أهون من أن يملك المسلمون بيت المقدس وحصَّنوا سوره ونصبوا عليه المجانيق ليمنعوا من يريد الدنو منه، وصعدوا على سوره بِحدِّهم وحديدهم وقد عزموا على حفظه والذب عنه .

وقد وصل جيش المسلمين إلى القدس في منتصف رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فرأى المسلمون على سوره من الرجال ماهالهم ، وسمعوا لأهله من الغَلَبة والضجيج داخل المدينة مااستدلوا به على كثرة الجمع .

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن السور في غاية التحصين، فلم يجد عليه موضع قتال إلا

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٧٩ - ١٨٢ .

من جهة الشـمال ، فانتقل إلى هذه الجهـة ونصب المنجنيقات ، وبدأ القتال بالرمي من الطرفين، وتقاتلوا أشـد قتال رآه الناس ، كل واحد من الفريـقين يرى ذلك دينا حتـما واجبـا فلا يحـتاج فيـه إلى باعث سلطاني.

وكان خـيَّالة الأعداء يـخرجون كل يوم إلى ظاهر البلـد يقاتلون ويبارزون ، فيُقتل من الفريقين ، وممن استشهد الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكـابر الأمراء وكان أبوه صـاحب قلعة جعـبر، وكان يقاتل بنفسه كل يوم ، فلما رأى المـسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك فحملوا حملة رجل واحد فأزالـوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم إلى القدس .

ووصل المسلمون إلى الخندق فـجاوزوه والتصقوا بالسـور فنقبوه، وزحف الرماة يحـمونهم ، والمنجنيقـات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ، حـتى يتمكن المـسلمون من نقب السـور، فلما نقـبوه حشوه بالمواد وفجروه فسقط السور والبرج الذي عليه .

فلما رأى ذلك الفرنج اجـتمع مُقَدَّموهم فتشـاوروا واجتمع رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس لصلاح الدين ، فأرسلوا جماعة من أعيانهم في طلب الأمـان فامتنع السلطان من إجابتـهم وقال: لاأفعل بكم إلا مافعلتم بأهله حين ملكتمـوه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء سيئة بمثلها .

فلمـا رجعت رسلهم خـائبين لم يظفروا بالصلـح أرسل كبيـرهم ياليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في أمر

الصلح فـأجيب إلى ذلك وحـضر عنده ورغب في الأمـان فلم يجـبه واسـتعطـفه فلم يعـطف عليه ، فلـما أيس من ذلك قـال له : أيهـا السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لايعلمه إلا الله تعالى، وإنما يفترون عـن القتال رجاء الأمان ظنا مـنهم أنك تجيبهم إليـه كما أجبت غيـرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحـياة ، فإذا رأينا الموت لابد منه فو الله لـنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحـرق أموالنا وأمتـعتنا ولانترككم تغنمون منها دينارًا واحـدا ولادرهما، ولاتسبُون ولاتأسرون رجلا ولاامرأة، وإذا فـرغنا من ذلك خرَّبْنا الصخرة والمسـجد الأقصى وغيـرهما من المواضـع ،ثم نقتل من عندنا من أسـارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ،ولانترك دابة ولاحيوانًا إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا فقـاتلناكم قتال مـن يريد أن يحمي دمه ونفـسه، وحينئـذ لايُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراما .

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمـان للفرنج، فاستقر أن يُؤخذ من الرجل عشـرة دنانير يستـوى فيه الـغني والفقيـر ويؤخذ من المرأة خمـسة دنانير ومن الطفل ذكـرًا أو أنثى ديناران ، فمن أدَّى ذلك إلى أربعين يوما فـقد نجا ، ومن انقـضت الأربعون يومـا عنه ولم يُؤدِّ ما عليه فقد صار مملوكا .

فبـذل ياليـان عن الفقـراء ثلاثين ألف دينار ، فأجـيب إلى ذلك وسُلِّمت المدينة يوم الجمـعة السابع والعشريـن من رجب ، وكان يومًا مشهودًا ورُفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها .

ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ، فَفُعِل ذلك ، وأمر أن يُعْمَل له منبر فقيل له : إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصُنَّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا عَملْنَاه لِيُنْصَبَ بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين ، ولم يُعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره فحُمل من حلب ونُصب بالقدس ، وهذا من حسنات نور الدين وبُعد همته وطموحه رحمه الله تعالى [1] .

وهكذا فُتح بيت المقدس للمرة الثانية في الإسلام وقد حاز شرف المرة الأولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحاز شرف الثانية السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شرف كبير أن يُقرن الثاني بالأول.

ومن المواقف الجليلة في هذا الحصار إقدام أبطال المسلمين على الزحف إلى سور المدينة وتجاوُزُهم الخندق الذي وضعه الأعداء لحمايتهم ، ثم قيامهم بنقب السور مع كثرة الرماة الذين هم فوق السور، وبإقدام هؤلاء الأبطال تم فتح بيت المقدس وانتصار المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الجهادية التي تم فيها الانتصار الحاسم على الصليبيين في حطين وفتح بيت المقدس وعدد من المدن والقلاع . . بعد ذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ليستريح جيشه ثم يواصل الجهاد بعد ذلك ، وكتب إلى البلاد جميعا باجتماع العساكر بدمشق.

ولما عاد إلى دمشق وجد وكيل الخزانة الصفيَّ بن الفايض قد بنى

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٢ - ١٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٤ - ٣٤٧ .

له دارًا بالقلعة هائلة مطلَّة على الشرف القبلي، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نُخلَق للمقام بدمشق ولابغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله ، وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويُقعدها عما خلقت له (١).

وهكذا نرى السلطان صلاح الدين يسمو عن متطلبات النفوس القريبة ، إلى متطلبات النفوس الطموحة العالية .

إنه لايهدأ له بال ولايقر له قرار وهو يرى بقايا الصليبيين مازالوا في بلاد الإسلام .

فكيف يسعد بالإقامة في القصر المنيف والجنان الوارفة وعُبَّاد الصليب ينتهكون بلاد الإسلام ويُذلُّون المسلمين ؟!

إن الإقامة في القصور والنعيم تعتبر بالنسبة لهذا البطل الطموح سجنًا للقلب الحي ، وإعاقة للفكر الوثاب .

إنه لايَسعد بسماع لحن مُطرب ولاكلام مُعجب، ولاثناء منمَّق، ولاتستجيشه رؤية القصور المنيفة وماتحتوي عليه من شهوات ونعيم، وإنما يسعد بسماع صهيل الخيل ، وقعقعة السلاح، ومقارعة الأقران، والنصر المؤزر على الأعداء .

فلذلك غضب على وكيل الخزانة الذي قصرت همته، وتَدَانَى طموحه إلى بناء قصر يستقبل به السلطان .

أو ليس خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول : ماليلة تُهدَى إليَّ

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٥١ .

فيها عروس أنَالَها محبٌّ بأحب إلي من ليلة شديدة البـرد كثيرة الجليد أُصبِّح فيها العدو بسريَّة من المهاجرين !

إنه وأمثاله سلف صالح عظيم لخلف مـبدع طموح من أمثال هذا السلطان الكبير .

فتح قلعة برزية :

قام صـلاح الدين برحلة جهـادية نحو السـاحل الشمالـي للشام وذلك في عام أربعة وثمانين وخمسمائة حيث فتح بعض المدن والقلاع الحربية . فمن هذه القلاع قلعـة « برزية » وكان أهلها يقطعون الطريق على المسلمين ويبالغون في أذاهم ، فـوصلها في الرابع والعشرين من جمادى الآخـرة، ونزل غربيَّها ، وهي الجـهة التي يمكن قتالهـا منها، وليس مـعه إلا قلة من جـيشـه لضيـق مسـالكها، ونَصَب المسلمـون المنجنيقات، ونصب أهل القلعة منجنيقا أبطل منجنيقات المسلمين لعلُوِّ مكانه ، فلما رأى صـلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعـون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه ، فقسَّم عسكره ثلاثة أقسام ، يزحف قسم فإذا تعـبوا عادوا ، وزحف القسم الثـاني، ثم الثالث ، ثم يدور الدور مرة أخـرى حتى يتـعب الفرنج حـيث إنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا سلَّموا القلعة .

فتـقدم القـسم الأول وزحفـوا إلى الأعداء ، وخرج الـفرنج من حصنهم فدافـعوا وكان يساعدهم ارتفاعـهم فكانوا إلى جانب السلاح يَدَحْرجون الحـجارة الكبيرة على المسلمين ، فلما تعـبوا نزلوا وخَلَفهم القسم الثاني وكان الزمان حراً فاشتد الكرب على الناس، وكان صلاح

الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين أخوه كذلك ، وكانت تلك نوبة القسم الخاص بصلاح الدين ، فقاتلوهم إلى الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وردَّهم وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبِّين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم ، وجاء الفرنج مالا قِبَل لهم به، وكان أصحاب القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضًا معهم، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فخالطهم المسلمون فدخل الفرنج حصنهم فدخل معهم المسلمون .

وكان طائفة قليلة من المسلمين في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يروا فيه مقاتلا . وليكثُروا في الجهة التي فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهم مانع ، فصعدوا أيضًا الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج ، فملكوا الحصن عنوة ودخل الفرنج «القُلَّة»(١) التي للقلعة وأحاط بهم المسلمون، وأرادوا نقبها، وكان الفرنج قد رفعوا مَن عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلة، وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة، وأخذوا مافيها وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله .

ذكر ذلك المؤرخ ابن الأثير وكان قد حضر ذلك الحصار ثم قال:

---

(١) يعني أعلى القلعة وهو مكان محصَّن .

ومن أعجب مايُحكَى من السلامة أنني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شماليَّ القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبيَّ القلعة ، وهو يَعْدُو في الجبل عرضا، فأُلقيَتْ عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لَوْ نَالَه لبَعجَه ، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه ، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة ، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض ومَرَّ من فوق الرجل ثم سقط على الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولاضرر ، وقام يعدُو حتى لحق بأصحابه، فكان سبب نجاته ، فتَعِسَتْ أم الجبان ! [1] .

فهذا الخبر فيه مواقف وعبر فمنها :

أولا : أن هؤلاء الصليبيين الذين انخدعوا بحصنهم الحصين فصاروا يقطعون الطريق وينهبون أموال الناس لم يُمهَلوا بل سلط الله تعالى عليهم هذا السلطان القوي فأخذهم شر أخذة وأصبحوا أذلة مملوكين بعد أن كانوا يملكون أموال الناس بالقوة ، فلا ينخدعَنَّ مبطل مفسد فإن هناك أيْدٍ قويةً عادلة قد أُعدَّت له إلى جانب عذابه في الآخرة.

ثانيًا : فيه مثل من حزم السلطان صلاح الدين وابتكار الطرق الحربية غير المألوفة إذا تعذر استعمال المألوفة، فحينما بطل استعمال المنجنيق عوَّض ذلك باستثماره كثرة جيشه فجعلهم أقسامًا يتناوبون ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٩٣ - ١٩٤ .

وحوَّل الوقت كله إلى قتال حتى استنفد كل طاقة الأعداء فسلَّموا أنفسهم ، وهكذا يفعل القائد المبدع حيث يضع الأمور مواضعها ويجعل لكل حال لبوسها .

ثالثًا : مثلٌ من إقدام المجاهدين على المغامرة وإن كان هناك من يكفيهم ولم تَصْدُر لهم أوامر ، وقد تمثَّل ذلك في مشهدين : الأول حينما قام أصحاب القسم الأول الذين انتهت نوبتهم فقاتلوا مع إخوانهم ، والثاني :حينما قام الذين خُلِّفوا في الخيام فتسوَّروا الحصن من جانب آخر وساعدوا إخوانهم في القتال، وهذا دليل على إخلاصهم وسمو مقاصدهم .

رابعًا : بركة التكبير ورفع الصوت به ، فلقد كان سببا في فتح الملجأ الذي كان داخل القلعة حينما كبَّر أسرى المسلمين الذين كانوا فوقه فتوهَّم الأعداء أن المسلمين صعدوا إلى سطحه ، والتكبير دائمًا له أثر مُزلْزل في الأعداء ، فطالما انخلعت له قلوبهم وتحطمت بسماعه معنوياتهم .

خامسًا : عبرة بليغة في نجاة ذلك المسلم الذي دحرج عليه الأعداء صخرة حيث هيأ الله له أن يسقط على الأرض وأن تقفز الصخرة من فوقه دون أن تمسه بأذى ، والله سبحانه إذا أراد سلامة عبده هيأ أسباب ذلك ، وفي هذا درس للجبناء الذين يقعدون في مأمنهم خوفا من المهالك ويضيِّعون بسبب ذلك طاقات كثيرة تَبْقى معطلة لايستفيدون منها هم ولالإخوانهم المسلمون .

فتح حصن الشغر :

بعد أن استولى صلاح الدين على حصن برزية توجه إلى حصن الشغر ،وكان لايصل إليه حجر المنجنيق من ارتفاعه ووعورة مسالكه، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها قال بعضهم : هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ [**الكهف** : ٩٧]، فقال صلاح الدين :أَوْ يأتي الله بنصر من عنده، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأُجيب إلى ذلك ، ونزل رسول وسأل إنظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلَّموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك،فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه،واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائه- وكان سبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يُعَرِّفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يُرَحِّل عنهم المسلمين،فإن فعل وإلا سلَّموه،وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليه أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا (١).

وفي هذا الخبر مثل من نصر الله تعالى أولياءه بالرعب الذي

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٢ .

يقذفه في قلوب أعدائهم ، فيسلكون معهم على خلاف السلوك المعتاد مع غيرهم .

كما أن فيه إشارة إلى قوة تعلُّق قلب صلاح الدين بالله عز وجل وثقته البالغة بنصره ، فمع تعذُّر السبل الموصلة إلى تلك القلعة قال: أَوْ يأتي الله بنصر من عنده ، فكان النصر هو ذلك الرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوب الأعداء فخرجوا للتفاوض وتسليم الحصن دون أن يمسهم أي أذى من الحرب .

حصار مدينة صور :

استطاع صلاح الدين تطهير بلاد الشام من أكثر معاقل الصليبيين، ولكن شُذَّاذهم ومن أَمَّنهم صلاح الدين تجمعوا في مدينة صور الساحلية، وقد قصدها صلاح الدين ولكن استعصى عليه فتحها لحصانتها الطبيعية حيث أنها أشبه بجزيرة ومدخلها من البر محاط بالبحر، فكان المسلمون يقاتلونهم من جهة واحدة والأعداء يقاتلونهم برّا من جهة وبحرًا من جهتين حيث كانت سفنهم تَرْمي جيش المسلمين ، وقد أدرك صلاح الدين عدم إمكانية فتحها إلا باحضار سفن تمنع خروج سفنهم من الميناء فأحضر عشر سفن، وقد قامت بالمهمة وحصرت سفن الأعداء إلا أنهم باغتوا سفن المسلمين فاستولوا على خمس منها ، فلم تَعُد الخمس الباقية كافية فأرسلها صلاح الدين إلى بيروت ، ورحل صلاح الدين عن صور لعدم إمكانية قتالهم بغير سفن (١) .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٨٦ - ١٨٧ .

استنجاد صليبيي الشام بأهل أوربًا :

وقـد رحل زعمـاء النصارى الـدينيون من صـور إلى بلاد أوربا، وقاموا بدعوة مكثفة لغـزو المسلمين واسترجاع بيت المقدس ، وصاروا يسـتنجدون بأهل أوربا ويحـثونـهم على الأخذ بثـأر البيت المقـدس، وصوروا المسـيح عليه السلام ، وجـعلوا صورة رجل عـربي والعربي يضربه، وقـد جعلوا الدماء على صـورة المسيح عليه السـلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محـمد نبي المسلمين [صلى الله عليه وسلم وحـاشاه مما يقـول الظالمون] وقد جـرحـه وقتله ، فـعظم ذلك على الفرنج فحـشدوا رجالهم ونساءهم ، ومن لم يستطع الخروج يـستأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالايتطرق إليه الإحصاء .

وقد كان من أثر هذه الحملة الدعائية الكبـرى قيام الحملة الصليبية الثالثة ، حيث استجاب لها ملوك أوربا ، فجندوا عشرات الألوف من الصليبيين عن طريـق البحر ، وخرج ملك ألمانيا ومـعه مائة ألف عن طريق البر .

وقد كان خروج ملك الألمان في سنة ست وثمانين وخمسمائة من بلاده ، وهم نوع من الفـرنج من أكثرهم عـددا وأشدهم بأسـا، وقد أزعجه مُلْك المسلمين البـيت المقدس فجمع عسـاكره وسار عن طريق القسطنطـينية ، وقد كـتب ملك الروم إلى صلاح الدين يُعَـرِّفه بذلك ويَعِدُه بمنعه من العبور ، ولكنه عجز عن ذلك إلا أنه منع عنهم الميرة.

وسـاروا حـتى مروا عـلى أرض الإسلام، وذلـك في مملكة قلج

أرسلان السلجوقي ، فثار بهم التركمان فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ، وعصف بهم البرد وكان الثلج متراكما فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقلَّ عددهم ، ومع ذلك خافهم الملك السلجوقي فهادنهم وسمح لهم بالتزود من بلاده بما يشاؤون . ثم مروا ببلاد الأرمن فأظهر لهم صاحبها الطاعة وأمدهم بما شاؤوا ، ثم ساروا نحو أنطاكية .

وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم ليغتسل وكان النهر شديد الجري فحمله الماء إلى شجرة فشجَّت وجهه وأخمدت أنفاسه وكفى الله شره ، وقد اختلف أصحابه على ولده فرجع عنه طائفة إلى بلادهم ، وسار فيمن بقي وهم يزيدون على أربعين ألفا، ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية فحسَّن لهم صاحبها المسير إلى عكا، فساروا على ساحل بلاد الشام فخرج لهم أهل حلب وغيرها وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات أكثر من أُخذ .

وبلغوا طرابلس فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا إلى عكا ، ولما رأوا مافيه أهلها من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد (١) .

وهكذا أنقذ الله تعالى المسلمين من مائة ألف مقاتل، وذلك بعدة عوامل ، منها غارة بعض المسلمين عليهم ، ومنها موت ملكهم وتفرقهم من بعده، وهذا أهمها، ومنها إصابتهم بالوباء وموت كثير منهم، ولو أنهم سلموا ووصلوا لكانت محنة كبرى على المسلمين،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠١ ، ٢٠٧ ، البداية والنهاية ١٢/٣٥٨ .

وفي ذلك يقول ابن الأثير : ولولا لطف الله بالمسلمين ، وأَهْلَكَ ملك الألمان وإلا كان يقال : إن الشام ومصر كانتا للمسلمين (١) .

وصول الصليبيين إلى عكا :

تقدم لنا أن الصليبيين خرجوا بأعداد كبيرة من أوروبا قاصدين بلاد الشام ، وقد وصلوا إلى ميناء صور فضاقت بهم فقصدوا عكا، وساروا إليها مع من اجتمع بها من صليبيي الشام عن طريق البر، وسفنهم تحاذيهم في البحر، وكان رأي صلاح الدين اقتطاعَهم وهم سائرون في البر، ولكن لم يوافق على ذلك قادته وطلبوا الأسهل لهم، وكان قد جعل جزءًا من الجيش يناوشونهم، ومع قلتهم فإن الأعداء هابوا قتالهم ، فكيف لو كان كل الجيش الإسلامي يناوشهم؟!

ووصلوا إلى عكا قبل المسلمين فأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ولم يتمكن المسلمون من الوصول إليها، وجرت بينهم وقائع كثيرة، أبرزها معركة في أول شهر شعبان باكرهم فيها صلاح الدين بحَدِّه وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، واستمر القتال إلى الظهر، وصبر الفريقان صبرًا حارَ لَهُ من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين حملة قوية من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم ، وركب بعضهم بعضا والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم وأَخْلَوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم ، وصار المسلمون يدخلون البلد وأدخل فيه صلاح الدين الرجال والمؤن (٢) .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠١ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩/٢٠١ - ٢٠٢ .

في هذه المعركـة موقف يذكر لابن أخى صـلاح الدين تقي الدين ومن ثبتوا وأثخنوا في العدو من أبطال المسلمين .

هذا وقد جرت معركة كبرى بينهم ، وذلك أن الصليبيين رأوا قلة جـيش المسلمين حـيث إن بعض جـيش صـلاح الدين مـرابط حـول الثغور، وجـيش مصر لم يصل ، فانتـهز الصليبيون الفـرصة قبل أن تأتي أمداد المسلمين ، فخرجوا من معـسكرهم كأنهم الجراد المنتشر قد ملؤوا الأرض طولا وعرضا ، وهجموا على ميمنة المسلمين وفيها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، فـأمدهم صلاح الدين برجال من القلب، فلمـا رأى الصليـيون قلة من في القلب عطـفوا عليه عـطفة رجل واحد فتقهقر كثير من المسلمين وانهزموا وثبت بعضهم واستُشهد بعض أمرائهم وشجعـانهم فقصد الأعداء التل الذي فيه خـيمة صلاح الدين ، فقـتلوا من مرُّوا به ، وانحدروا إلى جـانب التل الآخر ، ثم خشوا أن يُقـتطعوا فرجعوا، وكـان صلاح الدين يحث المسلمين على الثبات ويناديهم ويأمـرهم بالكرَّة فاجتمع حولـه جماعة صالحة فـتقدم بهم ، وكانت ميـمنة المسلمين قد ثبتوا وحملت مـيسرة المسلمين على من يليـهم فقطعـوا المدد عن الذين حـملوا على القلب ، فلمـا رجع هؤلاء كانت لهم ميسرة المسلمين، وحمل عليهم صلاح الدين بمن معه من خلفهم فلم يفلت منهم أحد ، وكان الـنصر للمسلمين على قلتهم بالنسبة للأعداء (١) .

فهـذه المعركـة فيهـا مثل من ثبـات صلاح الدين ورباطة جـأشه

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

وحسن تصرفه عند الشدائد، وفيها مواقف كريمة للمسلمين الذين ثبتوا معــه في عدم التــأثر بموقف من انهزمــوا، وبقاء مــعنويتهم عــاليةً مع ماأحرزه الأعداء في البداية من إجلاء أصحاب القلب عن مواقفهم .

معركة الأصطول :

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى البــلاد الإسلامية بطلب الإمــداد العسكري فــوصلت إليــه الجــيوش من بعض الــبلاد، ومنهــا أصطول خرج من مصر ، وقد وصل الأصطول قرب مدينة عكا، فلما سمع الفــرنج بقربه جهــزوا إلى طريقه أسطولا ليلقاه ويقــاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جميع جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأصطول ليــتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا عن قصــده بشيء فكان القتال برا وبحــرا ، وكان يوما مشــهودًا لم يؤرّخ مثله، وأخــذ المسلمون من الفــرنج مركبــا فيه من الرجــال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القــتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ، ووصل الأصطول الإسلامي سالما [١] .

وهذا يعتــبر نجاحا كــبيرًا لأولئك المجاهدين حــيث سيطروا على الميناء ودافــعوا عن الأصطول الإسلامي بــالرغم من وجود الصليــبيين القوي في البحر .

وقبل ذلك كان السلطان قد أمــر بتجهيز سفينة كــبيرة من بيروت فيهــا طعام كثير وأسلحة، فــقام من فيها من التــجار المسلمين بالتَّزيِّي بِزِيِّ الفــرنج خدعــة لهم وكانت الســفينــة مما غنمه المسلمــون منهم،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠٦ .

فوصلت ولم يشكَّ الأعداء أنها لتجارهم وأفرغت حمولتها فاكتفى بها المسلمون حتى قدم الأصطول المصري [1] .

وكان النصر حليف المسلمين في كل المعارك التي خاضوها مع الصليبيين حول عكا، وإن حصل لبعضهم انهزام في أول المعركة، إلا أن معاركهم معهم لم تكن حاسمة نظرًا لكثرة الصليبيين ، ولكونهم سبقوا إلى سور عكا وعملوا لأنفسهم تحصينات يلجؤون إليها عند الانهزام ، ولِمَا كان يعتري صلاح الدين من المرض الذي يحمله على مغادرة الميدان مدة قد تطول فيستفيد الأعداء من ذلك ، ولكون بعض قادة صلاح الدين لايأخذون برأيه أحيانا فتفوت على المسلمين فرص جيدة للنصر الحاسم ، ولأن الإمدادات من أمراء المسلمين تعتبر قليلة جدا بالنسبة لما يصل إلى الصليبيين من إمدادات [2] .

وقبل ذلك وأهمُّ منه أن من أسباب تأخر النصر وقوع المسلمين أو بعضهم في المعاصي ، وقد نبه القاضي الفاضل السلطان بعدَّة كتب لهذا المعنى ،ومما جاء فيها : إن ماعند الله تعالى من النصر لايُنال إلا بطاعته، وإننا لو صَدَقْناه لعجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقَبَنا بعدوِّنا، ولو فعلنا مانقدر عليه من أمره لفعل لنا مالا نقدر عليه إلا به ، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا أنها تسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَل ، ولكن في الطريق عائق [3] .

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٠ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٩/٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) البداية والنهاية ١٢/٣٦١ ، والقاضي الفاضل من العلماء الكبار وكان وزير صلاح الدين ومستشاره ، وكان يحبه كثيرًا ويأخذ بآرائه .

ابتكار علمي حربي موفق :

كان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدًا ، طول كل برج منها خمسُ طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد غَشَوْها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وقدَّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها فأشرفَتْ على السور ، وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طمِّ خندقها، فكادوا أن يملكوا البلد عنوة ، فقاتل صلاح الدين الصليبيين ثمانية أيام وخفف ذلك عن حامية البلد، وقد قاوم المسلمون الأبراج بالنفط الطيار فلم يصنع فيها شيئًا فأيقنوا بالهلاك.

ولما أراد الله تعالى إنقاذ المسلمين من تلك الأبراج وفق شابًا نحَّاسا من أهل دمشق يُعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان مولعًا بآلات النفط وتحصيل العقاقير التي تقوِّي عمل النار، وكان بعكا لأمر يريده الله، فلما رأى الأبراج قد نُصبَت على عكا شرع في عمل مايعرفه من الأدوية المقوية للنار ، بحيث لايمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما ، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش حاكم عكا، وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا بقوله فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر : لعل الله تعالى يجعل الفرج على يد هذا ولايضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره، فرمى

عدة قــدور نفطا وأدوية ليس فـيهــا نار ، وكان الفــرنج إذا رأوا القدر لايحرق شيـئًا يصيحـون ويرقصون ويلعبون على سـطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكــن من البرج فألقى قدرًا مملوءة وجعل فـيها النار فاشـتعل البـرج ، وألقى قدرًا ثانيــة وثالثة فـاضطرمت النار في نواحي البرج ، وأعَجَلْت مـن في طبقاته الخمس عن الهرب فـاحترق هو ومن فيه ، فلما احترق البـرج الأول انتقل إلى الثاني والثالث وقد هرب من فيهــما ، وكان يوما مشهــودًا لم ير الناس مثله، والمسلمون ينظرون فرحين لنجاة المسلمين من الأبراج .

وحُمِلَ ذلـك الرجل إلى صلاح الدين فـبذل له الأموال الجـزيلة والأقطاع الكثيـرة فلم يقبل منه شيـئًا ، وقال : إنما عملتـه لله تعالى ولاأريد الجزاء إلا منه (١) .

وبعد : فـإن ماقام به هذا الرجل المبـدع الماهر في الصناعة يعتـبر أمرًا عظـيمًا وإنجـازًا كبـيرًا نصـر الله تعالى به الإسـلام وأَقَرَّ عـيون المسلمين وأذل به الكفار وأبطل مساعيهم.

وهكذا يبـرز من عـبـاقـرة المسلـمين من يتـفـوقـون آنذاك على الأوروبيين الذين مهروا في الصناعة ، وهذا دليل علـى ارتفاع مستوى المسلمين في الصناعات الحربيــة ، لأن هذا الرجل لم يكن ليبلغ مابلغ لولا تقدم المسـلمين في الصناعة وتوفر الآلات والمـواد اللازمة لذلك، وقد كانوا في تلك المواد المحرقة قـد وصلوا إلى مستوى الأوروبيين ،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠٥ - ٢٠٦ .
البداية والنهاية ١٢/٣٥٧ .

ثم تفوق الصليبيون باختراع الموانع التي تمنع عمل النار ، فتوصل هذا المسلم المبدع إلى اختراع مواداً تقوِّي النار بحيث تُبطل مفعول تلك الموانع التي اخترعها الأعداء .

وهكذا تفوَّق المسلمون آنذاك على أعدائهم في الاختراع والصناعة فأعقب ذلك نصراً مؤزرا للمسلمين وهزيمة نكراء لأعدائهم .

استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم :

هذا وقد جرت معارك أخرى كان النصر فيها حليف المسلمين إلا أنها لم تكن حاسمة ، إلى أن وصل ملك فرنسا ثم ملك انجلترا على رأس جيشين في عدد من السفن فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا، وكان من أسباب ذلك أيضًا ماحصل من سآمة أفراد الحامية الإسلامية داخل عكا وإبدالهم بجنود آخرين ليسوا في مستواهم في الخبرة والعدد .

وكان الذي أطال بقاء الصليبيين حول عكا هو اعتصامهم بخنادقهم ، فكانوا قلَّما يخرجون للقتال، وإذا خرجوا وانهزموا لجؤوا إليها .

وكانوا إذا خرجوا يقصدون طائفة من المسلمين ليقضوا عليهم، فمن ذلك أنهم في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائه خرجوا واتجهو نحو جيش المصريين ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ودخل الصليبيون خيامهم فقاتلهم المصريون فيها ثم داروا على الصليبيين من الخلف وقطعوا إمدادهم ، وساعدهم أهل الموصل لقربهم منهم فقتلوا من الصليبيين مايزيد على عشرة آلاف .

ولما تتابعت الأمداد على الصليبيين خرجوا مرة أخرى من خنادقهم، فتصدت لهم مقدمة المسلمين بالرماية ، وندم الصليبيون على خروجهم فلزموا مكانهم ، وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا والمسلمون خلفهم يقتلون منهم ، وكان صلاح الدين مريضا وقد نُصب له خيمة فوق تلّ ، فلم يكن له إشراف مباشر ، يقول ابن الأثير : فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما لله أمر هو بالغه (١) .

وقد انتهى أمر صلاح الدين مع الصليبيين إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وذلك في العشرين من شعبان عام ثمان وثمانين وخمسمائة ، وقدكانت الهدنة بطلب من ملك انجلترا، وقد أشار أمراء صلاح الدين عليه بالموافقة ليرحل الفرنج القادمون فتخف الوطأة على المسلمين (٢) .

مثل من رحمة صلاح الدين :

وقد كان صلاح الدين رحمه الله رقيق القلب رحيما بالمسلمين عطوفا عليهم ، ولقد بلغت رحمته أعداءه ، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجدا شديدا واشتكت إلى ملوكهم فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنَّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه، فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها، فرقَّ لها رقة شديدة حتى

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٢١ - ٢٢٢ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٧٢ - ٣٧٣ .

دمعت عـينه ، ثم أمر بإحضـار ولدها، فإذا هو قـد بيع في السوق، فرسَم بدفع ثمـنه إلى المشتري ، ولم يزل واقـفا حتـى جيء بالغلام، فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبـكي من شدة فرحها وشوقها إليه، ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرَّمة ، رحمه الله تعالى [١].

ولاشك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقـية كان لها أثر بالغ في رفع سمعـة المسلمين الأخلاقية واجـتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام .

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٤ .

٦ – جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين

بقي للصليبيين إمارات في ساحل الشام حيث لم يتم إجلاؤهم بالكلية، إلى أن انتهى عهد الأيوبيين وجاء عهد المماليك فكان للسلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون وابنه خليل دور كبير في القضاء على الصليبيين وإزالة ملكهم عن بلاد الشام بالكلية .

ولقد كان هناك دولة للأرمن النصارى جنوب بلاد الأناضول، وقد كانوا حلفاء للصليبيين والتتار ، ولقد أدرك الظاهر بيبرس أن أي عمل حربي يقوم به ضد الأرمن والصليبيين سيكون محرِّضا للتتار للقدوم والمشاركة مع النصارى في مواجهته ، والتتار لاتزال لهم دولة قوية في الشرق تحت إمرة حاكمهم القوي هولاكو .

ولقد كان هناك طائفة من التتار لاتخضع لهولاكو وهم مغول القفجاق ، ويسمَّون القبيلة الذهبية ، وزعيمهم هو بركة خان، وقد اعتنق الإسلام ، فاغتنم الظاهر بيبرس هذه الفرصة فكاتب بركة خان وحرضه على قتال هولاكو ، فاستجاب لذلك بركة خان وكان مخلصا في إسلامه فقاتل هولاكو حتى شغله عن المسلمين وأضعفه وفرَّق جنده .

وبهذا نجح الظاهر بيبرس في هذا التخطيط الحربي الجيد حيث أمن جانب التتار وتفرغ للصليبيين (١) .

---

(١) الحروب الصليبية للدكتور سعيد عاشور ٢/١٠٨٩ ، والظاهر بيبرس البندقداري هو أحد سلاطين المماليك ، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة حتى سنة ست وسبعين وستمائة .

ولقد كان فيما قام به السلطان بركة خان عمل جهادي كبير يُشكر عليه ، حيث رفع بجهاده هذا إصراً ثقيلا عن كاهل المسلمين .

ولقد سار السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه إلى الشام قاصدا جهاد الصليبيين في عام أربعة وستين وستمائة ، وقد نزل في عين جالوت، وبعث عدة جيوش للإغارة على إمارات الصليبيين في الساحل، فأغاروا على عكا وصور طرابلس وحصن الأكراد، فسبوا وغنموا شيئًا كثيراً ، ثم نزل الظاهر بنفسه على مدينة صفد في الثامن من شهر رمضان ، وقد فتحها بعد حصار طويل وقتل كثيراً من أهلها، ثم جعلها معقلا للمسلمين فوضع فيها الجنود وزودّها بالذخائر والأسلحة [1] .

ثم عاد الظاهر إلى دمشق ، ووجه جيشا لقتال الأرمن وقد كانوا ناصروا التتار حينما غزوا الشام ، واستنجدوا بهم أيضًا حينما أراد بيبرس فتح أنطاكية ، فوجه بيبرس جيشين بقيادة الأمير قلاوون والأمير المنصور الأيوبي أمير حماة ، فالتقوا مع المسلمين عند دربساك وهي قلعة عند أنطاكية فأنزل المسلمون بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى واستولوا على عدد من بلدانهم المهمة ، ومنها سيس عاصمة أرمينية الصغرى ، ورجع المسلمون بغنائم كثيرة وعدد كبير من الأسرى، ومن بينهم ابن هيثوم ملك أرمينية الصغرى، ولم يستطع هيثوم استرداد ابنه إلا بمقابل تنازله عن مواقع مهمة مثل دربساك التي تتحكم في الطريق

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٣٨ .

بين أرمينية وأنطاكية ، ومدن أخرى تتحكم في الطريق بين أرمينية والجزيرة حيث يوجد التتار حلفاء الأرمن » (١) .

وبهذا استطاع بيبرس أن يُضعف أرمينية جدًا وأن يحصرها بحيث لاتستطيع أن تستنجد بأعدائه ولا أن تُنجدهم .

فتح مدينة يافا :

وفي يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من عام خمسة وستين وستمائة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه عازما على قصد الشام على حين غفلة ، وسار نحو يافا ، فوافته رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب في الليل وسار فصبَّح يافا وأحاط بها من كل جانب، فهرب من كان فيها من الصليبيين إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة ، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوَّضهم عما نُهب لهم بأربعين ألف درهم ،فركبوا في المراكب إلى عكا (٢) .

وهكذا تم فتح يافا وإجلاء الصليبيين منها بهذه السرعة والسهولة بفضل الله تعالى ثم بفضل التخطيط الحربي البارع الذي رسمه السلطان بيبرس الذي جمع الله تعالى له بين الشجاعة النادرة والرأي الثاقب .

فتح أنطاكية :

وبعد أن فتح الظاهر بيبرس يافا توجه شمالا يريد فتح أنطاكية ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٠ ، الحروب الصليبية / ١٠٩٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤١ - ١٤٢ .

وفي طريقه إليها فتح قلعة الشقيف، وقلعة الباشورة وغيرهما.

ولما قرب من أنطاكية أمر العسكر ليلاً بلبس آلة الحرب ونزل أنطاكية في غرة شهر رمضان ، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطا لم يجب إليها ، وزحف عليها ففتحها يوم السبت رابع الشهر ، وقد كان هو أول من فتح أنطاكية وقضى على الصليبيين فيها منذ أن استولوا عليها [1] .

وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس في غزو الصليبيين في ساحل الشام ، ومن ذلك ماقام به سنة تسع وستين وستمائة حيث خرج من مصر في ثاني عشر من شهر جمادى الآخرة ، وكان معه ولده الأمير السعيد وقد هاجم عدداً من حصون الصليبيين وقلاعهم الحصينة، وفتح منها قلعتَيْ صافيتا والمجدَّل وحصن الأكراد [2] .

ومما يذكر للسلطان الظاهر بيبرس كثرة خروجه للجهاد حيث كان لايهدأ له بال ولايقر له قرار بعاصمة سلطنته وهو يرى البلاد الإسلامية مهددة من الصليبيين والتتار وقد بلغت قوة دولته حدّاً أرهب الأعداء وجعل بعضهم يحاول الصلح معه ، فرحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٠ .

٧ - جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل -

فتح حصن المرقب :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان المنصور قلاوون(١) خرج بجيشه من مصر إلى بلاد الشام ، ووصل إلى حصن المرقب الذي هو تحت سيطرة الصليبيين ، وذلك في العاشر من شهر صفر عام أربعة وثمانين وستمائة ، وحاصر أهل ذلك الحصن ونصب المسلمون المجانيق ورموا بها الحصن وهدموا معظم أبراجه ، واستمر ذلك إلى سادس عشر من شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان بجيشه واستولى على ذلك الحصن، ونزل من فيه من الصليبيين بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهز السلطان معهم من أوصلهم إلى أنْطَرْسُوس (٢) .

فتح طرابلس :

ثم ذكر أنه في عام ثمانية وثمانين وستمائة خرج السلطان المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس ، ووصل في مستهل شهر ربيع الأول إلى طرابلس وحاصرها، ونصب عليها المجانيق ، وضايق أهلها مضايقة شديدة إلى أن ملكها عنوة في يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، وشمل القتل والأسر سائر

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي ، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٥ .

من فيها من الصليبيين ، وغرق منهم في الماء جـماعة كثيرة ، كما تم الاستيلاء على عدد من الحصون التابعة لها [١] .

فتح عكا :

كان السلطان المنصور قلاوون قد عـزم على حصـار مدينة عكا، وبدأ بالاستـعداد لذلك، ولكن وافـته المنيـة وهو في مخـيَّمـه خارج القاهرة بعد مرض أصابه ، ذكر ذلك ابن تغري بردي ثم ذكر أنه لما آل الأمر إلى ولده السلطـان خليل بن قلاوون[٢] واستتب لـه الأمر شرع في إكمـال ماعـزم عليه أبوه ، فتـجهـز للسفر ، وأرسـل إلى البلاد الشامية ليستعدوا للغزو معه ، وعمل آلات الحصار وجمع الصناع إلى أن تم أمره فـخرج بعـساكره من الديـار المصرية في ثالث شـهر ربيع الأول من سنة تسعين وستمائة ، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ، فاجـتمع عنده على عكا من الأمم مالايُحصَى كثرة، وكـان المطَّوِّعة أكثر من الجند ومن في الخدمـة ، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ، ونقب النقَّابون في سورها عدة نقوب .

قال : وأنجد أهلَ عكا صـاحب قبرص بنفسـه ، وفي ليلة قدومه عليـهم أشعلوا نيـرانًا عظيمـة لم يُرَ مثلهـا فرحًا به ، وأقـام عندهم مايقـرب من ثلاثة أيام ، ثم عاد عندمـا شاهد انحـلال أمرهم وعظَمَ مادهمهم ، ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلَّت

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٢١ .

(٢) تـولى الحـكم بعـد أبيه مـا بين عـامي تسعـة وثمـانين وسـتمـائة وثلاثة وتسـعين وستمائة .

عزائم من بهـا وضعف أمرهم ، واخـتلفت كلمتهم ، هذا والحـصار عمَّال في كل يوم ، واستُشهد عليها جماعة من المسلمين .

فلما كـان سحـر يوم الجمعـة سابع عـشر جـمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسٌّ عظيم مزعج، فـحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج ، ومُلكت المدينة بالسيف، ولـم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد اسـتولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل (١) .

فتح مدينة صور :

قال ابن تَغْرِي بَرْدِي : وكـان السلطان [يعني خليل بن قلاوون] عند منازلته عكا قد جهز جماعـة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى « صور » لحفظ الطرق وتعرُّف الأخبار، وأمـره بمضايقـة صور ، فـبـينما هو فـي ذلك لم يشعـر إلا بمراكب المنهزمين من عـكا قد وافت ميناء صـور ، فحال بينـها وبين الميناء ، فطلب أهل صور الأمان فأمَّنهم على أنفـسهم وأموالهم ويسلِّموا صور فأُجيبوا إلى ذلك ، فتسلَّمها .

ثم ذكـر أن السلطان خليل لما علم بذلك جـهز إليـها من خرَّبـها وهدم أسوارها وأبنيتها (٢) .

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ٥ - ٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ٨ .

نهاية الصليبيين في الشام :

وبعد هذه الفتوح بقي للصليبيين في الشام مدينة صيدا وعثليث وأَنْطَرطوس ، وكان السلطان خليل بن قلاوون قد ولَّى على نيابة الشام علم الدين سنجر الشجاعي فحاصر مدينة صيدا حتى فتحها بالأمان لأهلها يوم السبت خامس عشر رجب من سنة تسعين وستمائة، ثم فتح قلعة جُبَيل وخربها بأمر السلطان ، ثم فتح عثليث بعد شهر .

وأما أهل أَنْطَرطُوس فإنهم لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بَلَبان الطِّباخي عسكرا، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها ، فندب إليها السَّعديَّ بما كان أحضره من مراكب فأخلوها ، وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور [١] .

وهكذا قام السلطان المنصور قلاوون بمشروع جهادي كبير لاستئصال بقية الصليبيين في الشام ، فبدأ بفتح حصن المرقب الحربي الذي كان واسعًا وفي غاية الأهمية ، ثم ثنَّى بفتح مدينة طرابلس التي كانت مشهورة بحصانتها ومناعة سورها ، ثم ثلث بالعزم على حصار مدينة عكا فوافته المنية قبل ذلك ، فحقق له أمنيته ابنه السلطان خليل الذي خلَفه في الحكم ، وكانت عكا أهمَّ مراكز الصليبيين في ساحل الشام .

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٠ - ١١ .

ثم توَّجَ السلطان خليل بن قلاوون أعماله الجهادية بفتح بقية المدن والحصون التي استولى عليها الصليبيون .

وبهذه الفتوحات انتهى وجود الصليبيين في بلاد الإسلام الذي بدأ في عام ثمانيــة وسبعين وأربعمائة واســتمر حتى عام تسعين وســتمائة للهجــرة، وهذا يعني أن احتــلال الصليبيين لأجــزاء من بلاد المسلمين استمر اثنتي عشرة ومائتي سنة .

* * *

مواقف وعبر

فـى

جهـاد المسلمين مع التتار

خروج التتار وسبب ذلك

في سنة ست عشرة وستمائة سار التتار صحبة ملكهم جنكزخان قادمين من بلادهم في جبال طمغاج من أرض الصين، قاصدين قتال خوارزم شاه أمير خراسان وبلاد ماوراء النهر ، وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه أمر بنهب بعض تجارهم وكانت معهم أموال كثيرة ، فلما علم بهم خوارزم أقبل من خراسان بجيشه فاقتتل معهم في بلاد ماوراء النهر قتالاً شديداً ، ثم رجع إلى بلاده .

ولقد عَبَّر التتار نهر جيحون واستولوا على بلاد خراسان وماحولها حتى وصلوا إلى حدود العراق وأفسدوا في الأرض وقتلوا مئات الألوف من المسلمين وغيرهم ، وفي بيان هول مصيبتهم يقول ابن الأثير رحمه الله تعالى : هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام وإلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقًا ، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولايدانيها (١) .

ثم كانت النكبة العظمى في بغداد حيث أقبل التتار بقيادة سلطانهم هولاكوخان في مائتي ألف فقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي وقتلوا مئات الألوف في بغداد من العلماء والوجهاء وعامة الناس وذلك في عام ستة وخمسين وستمائة (٢) .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٢٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٢٠٠ .

وهذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلا للإخلاد للراحة والنعيم ، والبعد عن الحياة الجهادية ، فهؤلاء المئات من الألوف في بغداد ومِنْ قَبْلهم مئات الألوف من المسلمين في بلدان المشرق لوأنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولَضَعُف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد .

إن الإخلاد إلى الراحة والبعد عن الحياة الجهادية من الأمور المخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة أصحابه، حيث لم يكن في عهدهم أناس مخصوصون للقتال وبقية المسلمين لاشأن لهم بذلك، بل إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلهم مجاهدين، وحينما داهمت جيوش الكفار المدينة النبوية في أُحُد والأحزاب خرج المسلمون جميعًا بقيادة النبي ﷺ للقتال ، ولم يبق إلا الشيوخ الكبار والنساء والأطفال .

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى ، وقد تقدم ذكر أمثلة لذلك .

ثم خَبَتْ هذه الروح الجهادية شيئًا فشيئًا حتى نسي كثير من المسلمين الجهاد، وأصبحوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفسهم، وقد ظهر هذا العجز جليا في استسلامهم وتذللهم للتتار بدون مقاومة تذكر.

وفي عام ثمانية وخمسين وستمائة عبر التتار نهر الفرات قاصدين بلاد الشام بقيادة ملكهم هولاكو ، فاستولوا على حلب، ثم زحفوا إلى دمشق فاستولوا عليها ، وبذلك استولوا على بلاد الشام كلها .

– مواقف السلطان مظفر الدين قطز –

معركة عين جالوت :

وفي أثناء ذلك سار بطل الإسلام الكبير مظفر الدين قطز التركي حاكم مصر بالجيش المصري إلى الشام ، وانضم إليه جيش من الشام، وكان هولاكو في حلب وقد وجه إلى دمشق قائده الكبير «كتبغانوين» وهذا القائد هو الذي قام بأكثر حروب التتار منذ عهد جنكزخان جد هولاكو ، وقد كان التتار يَتَيمَّنون به لكثرة ماحقق لهم من انتصارات.

فلما وصل قطز بالجيش المصري توجه إلى جيش التتار، ودارت بين المسلمين والتتار معركة هائلة في « عين جالوت » كانت نهايتها انتصار حاسم للمسلمين، وهذه أول مرة ينتصر فيها المسلمون على التتار التابعين لملوكهم، وقد أحدثت هذه المعركة فرحة عظمى للمسلمين، واندحارًا كبيرًا للتتار [1] .

وهكذا هزم الله تعالى التتار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جيش الشام بقيادة مظفر الدين قطز، وحاز هذا الأمير الشجاع الشهم على شرف القيام بمواجهة التتار وهزيمتهم .

ولقد كانت هزيمة التتار في عرف المسلمين- آنذاك -أمرًا بعيد الاحتمال،ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم، واستعز النصارى وتطاولوا على المسلمين وأهانوهم ظنًّا منهم أن الدولة ستستمر للتتار،ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أخلف ظنون التتار

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٣ - ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ٧/٧٨ - ٨٣ .

والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعز بهم دينه.

إن معركة عين جالوت معركة فاصلة ، فصلت بين الإسلام والكفر، وبين دولة المسلمين ودولة الكفار ، فالتتار الذين انتصروا على أكثر بلاد المسلمين كان في يقينهم أنهم سيستولون على مصر وبقية بلاد المسلمين ، ولكن جنود مصر البواسل- بمعونة جند الشام - كانوا لهم بالمرصاد، فخيبوا آمالهم وأبطلوا أحلامهم .

ولقد قُتل في هذه المعركة الفاصلة « كتبغانوين » قائد التتار الكبير،ورجع هولاكو ملك التتار نحو المشرق خاسئًا ذليلا، وتم تطهير شمال الشام من التتار على يد الظاهر بيبرس أحد قادة قطز الأقوياء.

مواقف جهادية في هذه المعركة :

من ذلك مواقف قائد المسلمين مظفر الدين قطز حاكم مصر، ولابد قبل بيان مواقفه من إعطاء نبذة موجزة عنه، فهو محمود بن مودود من سلالة بيت خوارزم شاه حاكم بلاد المشرق الذي قضى التتار على مملكته ، وقد نُقل قطز وهو صغير إلى مصر حيث أصبح مملوكا للأمير صالح أيوب بن الكامل، ثم انتقل إلى ملك الأمير عز الدين أيبك التركماني حاكم مصر، وقد رأى فيه نجابة وشجاعة فقرَّبه إليه .

يقول عنه الإمام الذهبي : وكان المظفر أكبر مماليك المعز أيبك التركماني ، وكان بطلا شجاعا مقداما حازما حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار ، فعوض الله شبابه في الجنة ورضي عنه ذكره ابن تغْري بَرْدي (١).

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤ .

وقال ابن كثير : لما قُتِل أستاذُه المعز قام بتولية ولده نور الدين المنصور علي ، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر سنِّ ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه ، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة [1] .

ومن مواقفه العالية في هذه المعركة ماذكره الحافظ ابن كثير قال: ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قُتل جواده، ولم يجد أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب[2] ، فترجَّل وبقي واقفًا على الأرض ثابتا ، والقتال عمَّال في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير : ماكنت لأحرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلاَمَه بعض الأمراء وقال : ياخَوَنْد لِمَ لاركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك بسببك الإسلام، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لايضيعه، قد قُتل فلان وفلان وفلان ، - حتى عد خلقًا من الملوك - فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الإسلام [3] .

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دل على تواضعه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على

---

(1) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨ ، النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤ .

(2) الوشاقية هم سائسو الخيل .

(3) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨ .

تذكره عظمة الإسلام والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد رُوي عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه : لاتقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى (١) .

وهذه لفتة جيدة تدل على اهتمام مظفر الدين بالاعتماد على الله تعالى واستمداد النصر منه ، حيث أمَّل بموافقة ساعة صلاة الجمعة أن يستجيب الله جل وعلا دعاء خطباء الجمعة والمسلمين لهم بالنصر .

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا في بيان انتصار المسلمين وهزيمة التتار: وقُتل أميرهم « كتبغانوين » في المعركة وأُسر ابنه وكان شابا حسنا، فأُحضر بين يدي المظفر قطز فقال له : أَهَرَبَ أبوك ؟ قال: إنه لايهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ، ثم قال : أنام طيبا ، كان هذا سعادة التتار ، وبقتله ذهب سعدهم .

قال : وهكذا كان كما قال : ولم يفلحوا بعده أبدا ،وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله تعالى (٢) .

وهذا الخبر فيه دلالة على خبرة مظفر الدين قطز بمكامن القوة عند الأعداء ، حيث أدرك أن قوة التتار ونجاحهم يتمثلان في قائدهم الكبير

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٠ .

كتبغـانوين ، الذي توالت انتصاراته منذ عهد جنكيـزخان جد ملكهم هولاكو ، وقد كان الأمر كما قـال قطز حيث انتكس التتار بعد مقتله وتقلص مُلكهم .

وفي سجود مظفر الدين لله تعالى شكرا دلالة على عظمة اهتمامه بنصر الإسلام والمسلمين رحمه الله تعالى .

ومن مواقفه الجهادية أثناء المعركة ماذكره المؤرخ يوسف ابن تَغْرِي بَرْدِي قال : ثم رحل الملك المظفـر قطز بعساكره من غـزة ونزل الغور بعين جالوت ، وفيه جموع التتار في يوم الجـمعة خامس عشرين شهر رمضان [يعني من عام ثمانية وخمسين وستمائة] ووقع المصافّ بينهم في اليـوم المذكور وتقـاتلا قـتالا شـديداً لم يُرَ مـثله، حتى قُـتل من الطائفتين جمـاعة كثيرة ، وانكسـرت ميسرة المسلمين كسـرة شنيعة ، فحـمل المظفر - رحمـه الله - بنفسـه في طائفة من عسـاكره وأردف الميسرة حتى تحايَوا وتراجعوا ، واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه ، وأبلى في ذلك اليـوم بلاء حسنا ، وعظم الحرب، وثبت كل من الفريقين مع كثرة التتار ، والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ، وهو يكُرُّ بهم كـرة بعد كـرة ، حتى نصـر الله الإسلام وأعزه ، وانكسرت التتار ، وولوا الأدبار عـلى أقبح وجه بعد أن قُتل معظم أعيانهم ، وأُصيب مُقَدَّم العساكر التتارية كتبغانوين [1] .

وهكذا تبين لنا دور المظفـر قطز رحمه الله في نجـاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبل إذا انـهزمت طائفة منهم انهزموا أمام

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩ .

التتار ، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يسدَّ تلك الثغرة التي انفتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين ، ولقد كان لتشجيعه الجيش- وهو القائد - الأثر الكبير في ثبات أفراده حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى .

رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر :

لقد كان من أهم الحوافز للأمير مظفر الدين على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره ، وفي بيان ذلك يقول المؤرخ يوسف بن تَغْرِى بَرْدي نقلاً عن الشيخ قطب الدين اليونيني قال: حكى لي المولى علاء الدين بن غانم في غرة شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ببعلبك، قال : حدثني المولى تاج الدين أحمد بن الأثير - تغمده الله برحمته - مامعناه : أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف- رحمه الله - لما كان على « برزة » في أواخر سنة سبع وخمسين وصله قُصَّاد من الديار المصرية بكتب يخبرونه فيها أن قطز تسلطن وملك الديار المصرية وقبض على ابن أستاذه .

قال المولى رحمه الله : فطلبني السلطان الملك الناصر فقرأت عليه الكتب ، وقال لي : خذ هذه الكتب ورُح إلى الأمير ناصر الدين القَيْمَري والأمير جمال الدين بن يَغْمور أَوْقف كلا منهما عليها، قال: فأخذتها وخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني وسلم علي وقال : جاءكم بريديٌّ أو قُصَّاد من الديار المصرية؟ فوريت وقلت : ماعندي علم بشيء من هذا ، قال: قطز تسلَطن وتملَّك الديار المصرية ويكسر التتار .

قال تاج الدين : فبقيت متعجبا من حديثه وقلت له : أيش هذا القول ؟ ومن أين لك هذا ؟ قال : والله هذا قطز خشداشي(١)، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان ،وكان عليه قمل كثير ، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلسا أو صفعته ، ثم قلت في غضون ذلك : والله ماأشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارسا ، قال لي : طيِّبْ قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارسا ، فصفعته وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم ، فصفعته وقال لي : وألك علة ! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسا ؟ أنا والله أعطيك ، قال : ويلك كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت ، قلت: ويلك أنت مجنون ! أنت بقملك تملك الديار المصرية ؟ قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول النبي ﷺ حق لاشك فيه ، قال : فسكتُّ وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب .

قال تاج الدين : فلما قال لي هذا قلت له : وردت الأخبار بأنه تسلطن ، قال لي : والله هو يكسر التتار .

قال تاج الدين : فرأيت حسام الدين البركة خاني - الحاكي ذلك- بالديار المصرية بعد كسر التتار فسلم علي، وقال : يامولاي تاج الدين تَذْكُر ماقلته لك في الوقت الفلاني ؟ قلت : نعم ، قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قَطْيا دخلت الديار المصرية أعطاني(٢)

(١) أي كان تابعا لي .

(٢) يعني مظفر الدين قطز .

إمرة خمسين فارسا كما قال : لازائد على ذلك [1].

فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يُقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف .

لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض ، ومادامت هذه الرؤيا قد انتشرت - كما جاء في هذا الخبر - فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون أيضًا على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر ، فكان ذلك دافعا قويا لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وبذلك انتصروا على أعدائهم .

وبعد معركة عين جالوت تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرِّفة .

ومن ذلك ماذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي من أن التتار قدموا إلى الشام في أوائل شهر محرم من عام تسعة وخمسين وستمائة، فلما سمع بهم أهل حلب انسحب جيشها إلى حماة ، ثم انسحب جيش حلب وحماة إلى حمص فلما علم بهم التتار لحقوا بهم وكانوا في ستة آلاف ، فخرج إليهم المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجُوكَنْداري العزيزي صاحب حلب بعساكرهم، فحمل

---

(1) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٧ - ٨٩ ، وانظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩ .

المسلمون على التتـار حملة رجل واحد فهزموهم وقـتلوهم شر قتلة، وهرب أمير التتار بيدرا في نفر يسير ، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه [1] .

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٠٦ - ١٠٧ .

– مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار[1] –

من الأعلام الذين كان لهم دور فعال في جهاد التتار السلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام الذي خلف السلطان مظفر الدين قطز ، وقد كان للظاهر بيبرس دور مهم في معركة عين جالوت فقد كان من أبرز قادتها ، وهو الذي قام بمهمة ملاحقة التتار حتى مدينة حلب .

يقول الحافظ ابن كثير في بيان مواقفه مع التتار : وقد كان هولاكوخان لما بلغه ماجرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين فحيل بينهم وبين مايشتهون، فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر، فقدم دمشق ، وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكصوا على أعقابهم، وكروا راجعين القهقرى ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات [2] .

فهذا موقف يذكر للأمير الظاهر بيبرس البندقداري حيث سارع

---

(١) هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة بعدما قتل السلطان مظفر الدين قطز ، وقد استمر الظاهر بيبرس في حكم مصر والشام حتى سنة ست وسبعين وستمائة حيث توفي في هذه السنة .

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٦

إلى ملاقاة التتار قبل أن يصلوا إلى دمشق، وفرق جنده على الثغور والمعاقل ، فحفظ بلاد الشام ، وأرعب التتار حتى نكصوا على أعقابهم وعرفوا أنه قد أصبح للمسلمين دولة قوية .

ومما يدل على عظمة هيبة السلطان الظاهر بيبرس عند التتار ماذكره ابن تَغْرِي بَرْدي من أن ملك التتار «أَبْغَابن هولاكو» أمر عساكره بقصد البلاد الشامية ، فخرج عسكره في عشرة الاف فارس، وعليهم الأمير صَمْغرا والبَرْوَاناه [١] ، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفًا وخمسمائه من المَغُل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب ، وكان مُقَدَّمُهم أمال بن بَيْجُونوين ، ووصلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطون [٢] ، ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم .

قال : فتقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد [٣] ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم ، وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجَتْ ومُقَدَّمها الأمير بَيْسَرِي، فوصلوا إلى السلطان وخرج بهم، فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم [٤] .

وهكذا تبدلت الموازين والقوى ،فأصبح التتار يرهبون من المسلمين

---

(١) البروناه لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب، ثم أطلق على الوزير الأكبر وهو سليمان بن علي الصاحب معين الدين وزير السلاجقة حكام بلاد الأناضول - عن هامش النجوم الزاهرة - .

(٢) عينتاب بلدة بين حلب وإنطاكية ، وقسطون حصن من أعمال حلب .

(٣) أي إظهار الجفل والخوف من التتار .

(٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٥ - ١٥٦ .

بعد أن كان المسلمون يرهبون منهم، والناس هم الناس، ولكن لما كان المسلمون متفرقين ومتناحرين فيما بينهم وليس عندهم اهتمام بجهاد الأعداء فإنهم قد ضعفوا وأصبحوا نهبًا لأي دولة قوية تغير عليهم ، ولما ظهر فيهم الحاكمان القويان مظفر الدين قطز ثم الظاهر بيبرس قاما بتوحيد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة قوية، وكوَّنا الجيوش القوية التي تحمل روح الجهاد .

معركة ألبيرة :

لقد اغتنم التتار فرصة بُعْد السلطان الظاهر بيبرس عن شمال الشام فجاؤوا من المشرق وتحالفوا مع الروم والسلاجقة الذين يحكمون جزءًا من بلاد الأناضول، حتى وصلوا إلى بلدة « ألبيرة» (١)،وفي هذا الخبر ذكر الحافظ ابن كثير أن التتار نزلوا على مدينة « ألبيرة» في ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفا من المغول ، وخمسة عشر ألفا من الروم ، والمقدَّم على الجميع « البَرْوَاناه » (٢) بأمر «أبغا» ملك التتار، ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل ألبيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار، وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئًا كثيرًا ، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيش مدة ، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال (٣) .

---

(١) هي بلدة تقع بين مدينة حلب وبلاد الروم .

(٢) هو معين الدين سليمان بن علي الصاحب كما تقدم .

(٣) البداية و النهاية ١٣/ ٢٦٩ .

هذا وإن ماقام به أهل بلدة ألبيرة يعتبر مثلا عاليًا للشهامة والشجاعة، وذلك لايكون غالبًا إلا نتيجة للإيمان القوي وابتغاء فضل الله تعالى وثوابه .

إن الذي يمنع الناس من الإقدام على القتال هو الخوف من القتل، ولكن العقلاء إذا تذكروا بأن الأعداء إذا استولوا على بلادهم قتلوهم شر قتلة وأهانوهم وانتهكوا أعراضهم .. إذا تذكروا ذلك فإنهم يُقدمون جميعا على قتال الأعداء لأنه إن قُتل بعضهم في ميدان المعركة كان أعَزَّ لهم وأكرم ، هذا في مقتضى العقل السليم ، فكيف بالمؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة في الآخرة إذا باعوا نفوسهم له جل وعلا وبذلوا طاقتهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ؟!

وإن مما يُذكر للسلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام أنه لما سمع بنزول التتار على ألبيرة أنفق على الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعا وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق [1] .

فهذا موقف جهادي كبير لهذا السلطان ، يدل على اهتمامه البالغ بأمور المسلمين والقيام بنجدتهم وإرهاب الكافرين، ولعل رحيل الأعداء عن ذلك البلد كان سببه مابلغهم من قصد السلطان إليهم، وهو الذي اشتهر عندهم بالقوة والشجاعة والحزم .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٩ .

معركة أبُلُسْتين (١) :

ومن أبرز مواقف السلطان الظاهر بيبرس الجهادية ماذكره ابن تَغْرِي بَرْدي من أن السلطان خرج من القاهرة يوم الخميس العشرين من شهر رمضان عام ستة وسبعين وستمائة نحو الشام قاصدا بلاد الروم ، فلما وصل بلاد الروم قدَّم الأمير شمس الدين سُنْقُرَ الأشقر على جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه ، فوقع على كتيبة من التتار وعدتهم ثلاثة آلاف فارس ، ومَقَدَّمُهم «كراي» فهزمهم سنقر الأشقر وأسر منهم طائفة و ذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة .

ثم ورد الخبر على الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البَرْوَاناه اجتمعوا على نهر جَيْحان (٢) ، فلما صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أَبُلُسْتين فشاهد التتار قد رتبوا عساكرهم أحد عشر فرقة في كل فرقة ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفا من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج فرقة واحدة .

قال : فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار حملة واحدة وصدموا سنجق الملك الظاهر ، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة ، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه، ثم لاحت التفاتة منه فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التتار، فأمر الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها، ثم حمل هو بنفسه رحمه الله ، فلما رأته العساكر حملت نحوه برمَّتها حملة رجل

---

(١) مدينة مشهور ببلاد الروم ، وقد كانت آنذاك في سلطان السلاجقة .

(٢) هو نهر بالمصِّيصه ومنبعه من بلاد الروم .

واحد، فتــرجّل التتار عن خيولهم وقاتلــوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شــيئًا ، وصــبر لهم المــلك الظاهر وعسكره وهو يكُرّ في الـقوم كالأسد الضاري ، ويقتحم الأهوال بنفــسه ، ويشجع أصحابه ويطيِّب لهم الموت في الجـهاد إلى أن أنزل الله تـعالى نصــره على المسلمين، وانكسر التتار أقبح كسرة ، فـمنهم من قُتل ومنهم من أُسر ، وبقيتهم فروا إلى الجبال فاعتصموا بها ، فقصدتهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم ، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتل منهم جماعة .

واستشهد من المسلمين جماعة ، منهم عدد من الأمراء [1] .

وإنه لواضح من ملاحظة أحداث هذه المعـركة أثر السلطان الظاهر بيبرس في إنجاحهــا ، وذلك بتشجيعه أفراد جيشــه على الثبات وثباته بنفسه واقـتحامه المخــاطر ، وملاحظاته الدقيقــة على مواقع الخلل في جيشه .

وإن مما يذكر لقادة ذلك الجيش وأفــراده ثباتهم الراسخ أمام هجوم الأعداء العنيف بالرغم مما اعــترى بعضــهم من الانكسار المؤقت ولكن كان لشجــعان المسلمين أثر في صد الأعداء حــتى تراجع أفراد الجيش الإسلامي ، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين وخذل أعداءه المعتدين .

* * *

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٦٦ - ١٦٩ ، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

- مواقف السلطان قلاوون (١) -

معركة حول حمص :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان قلاوون سار من مصر إلى دمشق في عام ثمانين وستمائة ، وأنه ورد عليه خبر مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق فتهيأ لقتالهم، وأرسل يطلب العساكر المصرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق ، واجتمعت العساكر عند السلطان، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف .

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف حلب ، فخلت حلب من أهلها وجندها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص، وتركوا الغِلال والحواصل والأمتعة .

ثم ورد الخبر بوصول مَنْكُوتَمُر بن هولاكو ملك التتار إلى عيْنَتَاب وماجاورها في يوم الأحد سادس عشرين جمادى الآخرة، فخرج السلطان المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور، وخيم بالمرج، ووصل التتار إلى بَغْراس ، فقدَّم السلطان المنصور عسكره أمامه، ثم سافر في آخر جمادى الآخرة وسار حتى نزل بعساكره على حمص في شهر رجب .

وشرعت التتار تتقدم قليلا قليلا بخلاف عادتهم، فلما وصلوا حماة أفسدوا بنواحيها ، واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه في يوم الخميس رابع عشر شعبان ،

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

فركب المنصور بعساكره وصافَّ العدو ، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ماقيل مائة ألف فارس أو يزيدون، وعَسْكرُ المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره، وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني : وكانت وقعة عظيمة لم يُشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الرستن (١) والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها، وانهزم من كان فيها ، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر، وثبت السلطان المنصور قلاوون، رحمه الله تعالى ، في جمع قليل بالقلب ثابتا عظيما، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحدق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب ، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسُّوقَة والغلمان والرجَّالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأشرف الإسلام على خطة صعبة ،ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل سُنْقُر الأشقر، وبدر الدين بَيْسَري، وعلم الدين سَنْجر الدُّويداري، وعلاء الدين طَيْبَرْس الوزيري، وبدر الدين بيليك، وسيف الدين أَيْتَمُش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري ، والأمير حسام الدين طُرُنْطَاي ، وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردُّوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة ، وجُرح مَنْكُوتَمُر مقدَّم التتار .

---

(١) الرستن قرية بين حمص وحماه تشرف على نهر العاصي .

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عَرَبه عَرْضًا، فتمت هزيمتهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُجاوز الوصف، واتفق أن ميسرة المسلمين كانت قد انكسرت كما ذكرنا ، والميمنة ساقت على العدو ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير، والأمير حسام الدين طرنطاي قدَّامه بالسناجق[1]، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به ، وهو في ذلك النفر تحت السناجق (يعني السلطان المنصور قلاوون) والكوسات تُضرب [2].

قال : ولقد مرت به في ذلك الوقت وماحوله من المقاتلة ألف إلا دون ذلك ، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كَسرت ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتًا عظيمًا ، ثم ساق عليهم بنفسه فانهزموا أمامه لايلوون على شيء ، وكان ذلك تمام النصر، وكان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب ، وافترقوا فرقتين : فرقة أخَذَتْ جهة سَلَمْيَةَ والبَرِّية ، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات .

قال : ولما انقضى الحرب في ذلك النهار وعاد السلطان إلى منزلته، وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان، ومقدَّمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيْدَمُري .

قال : وكُتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد وحصل للناس السرور الذي لامزيد عليه ، وعُملت القلاع وزُينت المدن، أما

(١) وتنطق الصناجق أيضا وهي كلمة تركية معناها الألوية .

(٢) هي الطبول الكبار وتستعمل في الحرب .

أهل دمشق فـإنه كان ورد عليهم الخبـر أولاً بكسرة المسلمين، ووصل إليهم جمـاعة ممن انهزم ، فلما بـلغهم النصر كان سـرورهم أضعاف سرور غيـرهم ، وكان أهل البلاد الشاميـة من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعـون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخـرج أهل البلاد بـالنساء والأطفـال إلى الصحـاري والجوامع والمسـاجد، وأكـثـروا من الابتهـال إلى الله عـز وجل في تلك الأيام لايفـترون عن ذلك ، حـتى ورد عليـهم النصر الـعظيم ولله الحمـد وطابت نفوس الناس ، وردَّ من كان نزح عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك .

قال : وقُتل في هذه الوقعة من التتار ما لايُحصى كثرة، وكان من استُشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ماقيل (١).

وهكذا عشنا مع أحداث هذه المعركة الكبـيرة التي خطط لها التتار وجمعوا لها الجموع الكثيـرة ليقضوا بها على وجود المسلمين ودولتهم القوية في مـصر والشام ، ولكن ظـنونهم خابت، وأحلامـهم تبددت أمام ثبات شجعان المسلمين .

لقد تعوَّد التتار على الهجوم الصاعق في بداية المعارك الذي يعقبه انهزام كـثير من المسلمين وفـرارهم ، لكنهم وجدوا منهم في معـركة عين جالوت وماتلاهـا غير ماتعودوا منهم ، إلا أنهـم في هذه المعركة قد اعتدوا بكـثرة جمعهم ، وهم يعلمون أن المسلمين لايسـتطيعون أن يجمعوا مثلهم فأقدموا على قـتالهم ، غير أن الفارق في العدد عوضه

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٠١ - ٣٠٥ .

شجاعة الشجعان بعد الأمل الكبير في نصر الله تعالى والتوكل عليه.

وفي عرض مقطع من هذه المعركة يتبين لنا أهمـية الثبات والصبر في النصر ، وذلك فيمـا فعلته ميمنة التتار حيث هجـموا على ميسرة المسلمين وهم ألوف فانهزموا ،بينما لما هجم هؤلاء التتار على السلطان قلاوون ثبت لهم وصبر وهو في ألف أو أقل حتى هزمهم وفرقهم .

وأخيراً فإن لِمَا قام به المسلمون من دعاء الله تعالى والتضرع إليه على النحو المذكور أثراً معلوما في تنزل نصر الله تعالى فإنه جل وعلا مع عباده المؤمنين بنصره وتأييده إذا لجئوا إليه بإخلاص وصدق .

– دخول التتار في الإسلام –

إن من عجائب التاريخ أن تلك الأمة الهمجية تدخل في الإسلام حيث أسلم بركة خان أحد زعماء التتار وأسلم كثير من قومه، وبلغ من إخلاصه أنه قام بحروب كبيرة ضد ابن عمه هولاكو خان زعيم التتار الذي قضى على دولة الإسلام وقتل مئات الألوف من المسلمين، يقول الحافظ ابن كثير عن بركه خان: السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركه خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئًا كثيرًا، وقد قام بالمُلْك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان بن بابوين بن تولى بن جنكيزخان، وكان على طرّيقته ومنواله ولله الحمد [1].

وإلى بركه خان هذا يرجع الفضل بعد الله تعالى في دحر هولاكو وصده عن إكمال هجومه على بلاد الإسلام.

بل إنه قد دخل في الإسلام أحد بناء هولاكو وهو أحمد وقد أصبح سلطانا على التتار بعد أخيه أبغا بن هولاكو، وذلك في عام واحد وثمانين وستمائة، ذكر ذلك المؤرخ ابن تَغْرِي بَرْدِي وذكر أنه مسلم حسن الإسلام، وعمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٤٩ .

إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار[1] وضرب عليهم الجزية [2] .

ثم أظهر الإسلام ملك التتار قازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، وسمى نفسه بعد الإسلام محمودا، ولكن كانت أعماله مع المسلمين تتنافى مع الإسلام .

وإن في دخول هذه الأمة في الإسلام دليلا على عظمة الإسلام، وعلى مقدار اعتزاز المسلمين بإسلامهم ، فإن المعروف في تاريخ الأمم- في حال اكتساح أمة لأمة أخرى في الحروب - أن المغلوب يقلد الغالب ، فيتأثر بسياسته وأخلاقه وأفكاره الدينية ،فيكون الغزو الفكري تابعا للغزو العسكري ، لكن الذي حصل للأمة الإسلامية آنذاك كان بضد ذلك حيث كان المسلمون يحتقرون التتار ويحكمون عليهم بالانحطاط الفكري والخلقي ، بينما أدرك التتار عظمة المسلمين في المجال الفكري والأخلاقي،والاجتماعي والسياسي والاقتصادي. . ثم لما حللوا ذلك وجدوا أن سر تلك العظمة يكمن في الدين الإسلامي العظيم الذي يحكم جميع تصرفات المسلم وسلوكه في هذه الحياة . . إنهم لم يروا دين الإسلام محصورا في شعائر تعبدية ، ثم ينطلق المسلمون بعد ذلك في حياتهم على مقتضى ماتمليه عليهم أفكارهم وأهواؤهم ، لأنهم وجدوا أن أنظمة الإسلام السياسية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية تفوق مستوى تفكير الإنسان،

(١) يعني اللباس الذي يتميزون به كالزنّار ونحوه .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٠ .

ولاتتغير بتغير البلاد والزمان ، فأدركوا أن وراء هذا التفكير الموحد الذي شمل أكثر بلاد العالم قوة عظمى ومبادئ عليا يخضع لها جميع المسلمين ، فقادهم ذلك إلى تعظيم الإسلام والدخول فيه .

لقد كان دخول زعماء التتار في الإسلام يعني توقف الحرب بينهم وبين دولة الإسلام القائمة في مصر والشام ، خصوصا وأن الخلافة الإسلامية قد قامت في هذه الدولة بعد أن بايع السلطان الظاهر بيبرس المستنصر بالله أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي وذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار الاعتداء على هذه الدولة يعني الخروج على الخلافة .

– مواقف السلطان محمد بن قلاوون [1] –

ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي أن قازان ملك التتار قد زحف على بلاد الشام بجيش كبير وذلك في عام تسعة وتسعين وستمائة، وأن السلطان محمد بن قلاوون قد خرج من مصر إلى الشام ووصل إلى دمشق ثم زحف إلى حمص وانضم جيش الشام إلى جيش مصر، والتقوا مع التتار قرب مدينة سَلَمْـيَة يوم الإربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، وحملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير ، ثم حمل قلب المسلمين أيضًا حملة هائلة وصدموا العدو أعظم صدمة ، وثبت كل من الفريقين ثباتًا عظيمًا، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض، بلاء من الله تعالى ، فانهزمت ميمنتهم بعد أن كان لاح لهم النصر، فلاقوة إلا بالله، ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضًا من كانوا وراء القلب من غير قتال، وألقى الله الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وانسحب السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومُدبِّري مملكته، وترك أفرادُ الجيش العتاد والسلاح والمؤن وحاولوا النجاة بأنفسهم .

ولقد أصاب أهل الشام رعبٌ عظيم حينما علموا بهزيمة جيش

---

(1) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون التركي، وهو أشهر سلاطين المماليك وقد تولى السلطنة ثلاث مرات : الأولى مابين عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين وستمائة،والثانية مابين عامي ثمانية وتسعين وستمائة وثمانية وسبعمائة ، والثالثة استقر بالسلطنة مابين عامي تسعة وسبعمائة وواحد وأربعين وسبعمائة .

السلطان ، ولكن خفف من رعبهم حينما علموا أن قازان مسلم وأن غالب جيشه من المسلمين ، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين [1] .

أما سبب انهزام المسلمين بعدما لاح لهم النصر فقد ذكره السلطان محمد بن قلاوون في خطابه الذي بعثه لقازان ملك التتار جوابا على خطاب قازان الذي يذكر فيه إسلامه وإسلام قومه وأن السبب في غزوه بلاده هو اعتداء بعض رعية السلطان على بعض رعية ملك التتار ، وقد أنكر عليه السلطان مايحصل من التتار من الإفساد في الأرض مع كونهم يظهرون الإسلام ، وأبان له بأن سبب انهزام المسلمين من جيشه هو معرفتهم بأن ملك التتار مسلم وأن غالبية جيشه قد أظهروا الإسلام فأصابهم عند ذلك شيء من التردد في جواز قتالهم [2] .

ولقد جَدَّ المسلمون بعد ذلك من جيش دولة الخلافة في قتالهم حينما بان لهم إفسادهم وأفتاهم العلماء بأنهم يشبهون الخوارج كما سيأتي .

وهذه المعركة وإن كانت نتيجتها لصالح التتار فإن فيها مواقف تشكر لجيش الشام ومصر وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذي كان آنذاك لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كان في دولته عدد من الأمراء الشجعان وكان لهم دور جيد في ثبات الجيش أول المعركة .

مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية :

وفي أثناء ذلك جرى موقف كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٢ - ١٤٦ .

الله تعالى ، وذلك حينما خرج من دمشق هو وعدد من العلماء والأعيان لتلقي قازان وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير ، وذكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر البالسي حكاية ماجرى من ذلك ، فقال : وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل للقان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على مابلغنا ، فغزَوتَنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟

قال : وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَبٌ قام فيها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل.

قال : وقرب إلى الجماعة طعاما فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل له: ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟!

قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : « اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملِّكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليُذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره » ، قال : وقازان يؤمِّن على دعائه ويرفع يديه .

قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله .

قال: فلما خرجنا من عنده قال له القاضي نجم الدين بن صُصْري

وغيـره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لانصـحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم .

قال : فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحـابه، فتسـامعَتْ به الخواقين والأمـراء من أصحاب قـازان فأتوه يتبـركون بدعائه ، وهو سـائر إلى دمشق وينظرون إليـه، قال: والله ماوصل إلى دمـشق إلا في نحو ثلاثمائة فـارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كـان معه ، وأما أولئـك الذين أبوا أن يصحبوه فـخرج عليهم جماعة من التتـر فشلَّحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره [(١)].

ففي هذا الخبر عدة مواقف وعبر :

أولا : في كلام شيخ الإسلام ابن تيميـة أمام ملك التتار الجبار، ذلك الكلام القوي الرصين الذي أنكر عليه فيـه قيامه بظلم المسلمين، وذلك في قتالهم ونهب أموالهم مع أنه مسلم ويظهر شعائر الإسلام.

ثانيًا : في دعائه القوي الواضح الذي دعا فـيه لملك التتار إن كان يريد عـزة الإسـلام والمسلمين ، ودعـا عليـه بتلك الدعـوات القـوية الساحقة إن كان يريد إذلال الإسلام والمسلمين .

ثالثًا : في ورعه الدقيق ، حيث امـتنع عن الأكل من طعام التتار لكونه مما نهبوه من أموال المسلمين .

وفي هذه المواقف كان رحمه الله تعالى في غاية القوة والجرأة في قول الحق أمام سلطان جبار قد اشتهر بالبطش والعنف .

---

(١) البداية والنهاية ٨/١٤، ٩١ - ٩٢ .

ولقد كـان الإقدام على الإنكار على ذلك السلطان الجـبار يعتـبر إقداما على الشهادة في سبيل الله تعالى في أغلب الاحتمالات ، ولا يمكن أن يقـدم على ذلك إلا من قـد حـملوا أرواحهم علـى أكفـهم وأصبح هدفهم الأعلى هو إظهار عزة الإسلام وإنصاف المظلومين مهما تكن النتائج في ذلك ثم إنه لايقوى على الوقوف مثل ذلك الموقف إلا الرجل الذي امتـلأ قلبه إيمانا بالله عز وجل وكـان قوي الاستحـضار لعظمته وجلاله ، لأن فكره - والحـال هذه - لايتصور قوة ولاعظمة في الوجود إلا قوة الله جل وعلا وعظمـته ، بينما تتلاشى من ناظريه كل مظاهر القوة والعظمة التي يظهر بها سلاطين البشر .

ولقد كـان هذا هو الدافع لشـيخ الإسلام ابن تيـمية ليـقف ذلك الموقف العظيم ، ولقد عبر عن ذلك بقـوله لمن سأله عن موقفه ذلك: ذكرت عظمة الله تعالى فأصبح السلطان أمامي كالقط .

رابعًا : في هذا الخبـر عبرة عظيمـة ، وذلك في موقف السلطان قازان من شيخ الإسـلام ابن تيمية حيث لان لـه حتى أصبح بن يديه كـالحَمَل الـوديع ، وتلاشى عنه جـبروته وتعـاظمـه وأبهـة سلطانه، وأصبح من تأثره بـكلام ابن تيميـة إلى حد أنه طلب الدعـاء له وكان يؤمِّن على دعـائه حتى حـينما دعـا عليه إذا هو انحـرف عن الطريق المستقيم ، ولاشك أن ذلك من تسخـير الله تعالى ، حيث ألان قلب ذلك السلطان لابن تيمية، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء .

خامـسًا : وفيـه عبـرة فيمـا حدث لابن تيمـية في رجـوعه إلى

دمشق، وما حدث لمعارضيه الذين أبوا أن يصاحبوه لظنهم أن سلطان التتار سيرسل إلى ابن تيمية من ينتقم منه في الطريق، فكان الأمر على خلاف ماتوقعوا ، حيث رجع ابن تيمية إلى دمشق في عزة وحماية قوية من فرسان التتار الذين أُعجبوا به وبالغوا في احترامه، بينما رجع أولئك الذين فارقوه بشرٍّ حال، وذلك كله مع ماسبق يوضح لنا معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد جزاء لهم على توكلهم عليه وتعظيمهم إياه واستمدادهم النصر منه ، وخذلانه لمن غاب عن باله تصور عظمته، وهيمن على قلبه تصور عظمة المخلوقين والرهبة منهم .

موقف جهادي لنائب القلعة :

ولما استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فسادًا هم وأتباعهم من النصارى فقتلوا في دمشق وماحولها عددًا كبيرًا من المسلمين وسبوا كثيرًا من النساء والأطفال ونهبوا كثيرًا من الأموال، وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي كان لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام ، قال الحافظ ابن كثير : وأرسل قبجق إلى نائب القلعة [يعني أرجواش المنصوري] ليسلمها إلى التتار فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضا فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزا

لأهل الشام التي لاتزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بهـا عيسى بن مريم عليه السلام [1] .

فهذا مـوقف يذكر لنائب القلعة أرجواش حـيث صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار ، مع أن الشـام كله قد سقط بأيدي التتار ، فما نـسبة هذه القلعة إلى بلاد الشـام ؟! ومع ذلك ومع احتمـال قيام التتار بتدمير تلك القلعة فقد ثبت فيها نائبها ومن معه من الجنود وأبى أن يسلمها .

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيـمية تأثير واضح وقوي على نائب القلعة ، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك القلعـة، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهـادية عالية تتـسم بالقوة والثبـات والتصمـيم على الدفاع عن الإسلام والمسلـمين حتى آخر قطـرة من دمه ودم أتباعـه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأتمرون بأمره فكيف لو كان معه جيش كبير ؟!

ولقـد كان تصـميم أرجـواش نائب القلعة ثابتـا ، فلقد كلَّـمه- إضافـة إلى أمير دمشـق - الأمير حسـام الدين لاجين والأمير بكتـمر وغـيرهمـا في تسليم قلعـة دمـشق إلى نائب التـتار وقـالوا له : دَمُ المسلمين فـي عنقك إن لم تسلمـهـا، فـأجـابهم : دم المـسلمين في أعناقكم، أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجـهتم إلى قازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغـيرها، ثم وبخهم ، ولم يسلم قلعـة دمشق، وتهيأ للقـتال والحصار واسـتمر على حفظ القلعـة، ثم ترادفتْ قُصَّادُ

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٩ .

غازان إلى أرجواش هـذا وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة، فثـبته الله تعالى ومنع ذلك بالكلية ، وكان هؤلاء الأمراء قد لجئوا إلى قازان فرارًا من الملك محمد بن قلاوون حاكم مصر والشام [1] .

وذكر الحافظ ابن كثـير بعض مافعلته عصـابات التتار بأهل الشام من القتل والنهب ثم قـال : وخرج الشيخ ابن تيـمية في جمـاعة من أصحابه يوم الخـميس العشرين من ربيع الآخر - يعني من عـام تسعة وتسـعين وستـمائـة - إلى ملك التتـر ، وعاد بـعد يومين ولم يتـفق اجتماعه به، حجبه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة والتزما له بقضاء الشغل، وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ولابد لهم من شيء [2] .

وهذه هي المحاولة الثانيـة من شيخ الإسلام ابن تيميـة في مقابلة ملك التتار ، مما يدل على تفانيـه في إعزاز الإسلام وحماية المسلمين، وتضحـيته بنفـسه ووقته من أجـل ذلك ، ولكن تبين من كلام وزراء قازان بأن التتار لن يرجعوا إلا وقد أخذوا من الأموال مايكفيهم، وقد حصَّل لهم نائبهم قبجق وعماله كثيرًا من أموال الناس بالقوة [3] .

وذكر الحافظ ابن كثير دخول التتار إلى دمشق ، واستيلاءهم على كثير من أموال الناس، ثم قال: وشرع التـتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بهـا القلعة من صحن الجامع، وغلقت أبوابـه، ونزل التتار في مَشَاهِده يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ماحوله من الأسواق.

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٠ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٠ ، النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٦ .

قال : وفي ذلك اليوم - يعني يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى من عام تسعة وتسعين وستمائة - توجه السلطان قازان ، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه: « إنا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها » وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه نائب قازان ، وسار وراءه ، وضربت البشائر بالقلعة فرحا لرحيلهم ولم تفتح القلعة، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سالمين [1].

وهكذا كان أصحاب القلعة هم الوحيدين الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة ، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وعجزهم عن فتح قلعة ، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة مايملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين وخذلان أعدائهم .

وقال الحافظ ابن كثير في خبر هذه القلعة : وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتار ونهبوهم، وقُتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر ، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، فكلموه

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٠ .

وبالغوا معه ، فلم يجب إلى ذلك ، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه [1] .

فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المطيعين المنتظمين هل يكون للتتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطئ قدم ؟!

لقد كان أمل أرجواش كبيرًا في أن يزول التتار وأن تعود بلاد مصر والشام دولة واحدة، وهذا ما تحقق بعد ذلك حيث جلا التتار وعادت دولة الإسلام القوية ، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التتار ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله .

مواقف أخرى لابن تيمية وغيره :

ولما رحل قازان إلى العراق ببعض جيشه وترك جيشا في الشام بقيادة بولاي كان لشيخ الإسلام ابن تيمية موقف مع بولاي ذكره الحافظ ابن كثير فقد ذكر أنه في اليوم الثامن من شهر رجب من العام التاسع والتسعين وستمائة خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيرًا منهم من أيديهم وأقام عنده ثم عاد [2] .

فهذا مثل من بذل الإحسان والسعي في إنقاذ المسلمين من الضرر، حيث غامر شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذهب إلى والي التتار وسعى في إنقاذ أسرى المسلمين، وهذا يعتبر من الأعمال

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١١ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١١ - ١٢ .

الجهادية العالية، من حيث اشتماله على المشقة الكبيرة في مخاطبة الجبارين واحتمال التعرض للشهادة في سبيل ذلك .

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحيل بقية جيش التتار خوفًا من جيش مصر القادم ، وفي ذلك يقول : ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكرالمصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم . . إلى أن قال : ونادى أرجواش في البلد : احفظوا الأسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولاتهملوا الأسوار والأبواب ، ولايبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط [(١)] .

وهذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية ونائب القلعة أرجواش ، حيث حوَّلا المسلمين كلهم في البلد إلى مجاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهدا إذا احتاجت إليه الأمة،وأن يكون كل أفراد الأمة جنودًا احتياطيين يَنْفِرون إلى الجهاد عند اللزوم .

وذكر الحافظ ابن كثير أنه في مستهل صفر من عام سبعمائة وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفًا على ضعفهم . . إلى أن قال: وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلس في الجامع وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٢ .

ذلك، ونهى عن الإسراع في الفـرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذبِّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن مـا ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا، وأوجب جـهاد التتار حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك .

كمـا ذكر أن الشيخ زين الدين الفـارقي وإبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين ابن تيمية وابن خبارة خرجوا إلى نائب السلطة الأفرم - وكان مرابطا فـي المرج - فقووا عزمه على مـلاقاة العدو، واجتـمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قـتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك [1].

وهذا موقف يذكر لهؤلاء العلماء فقـد قاموا بمهمتهم وأدوا الأمانة التي جعلها اللـه تعالى في رقابهم، فالعلماء هم المسـئولون عن تبليغ الإسلام ، وهم أول المسئولين عن إصـلاح المجتمع الإسلامي وإعداده للجهاد وحماية دار الإسلام .

وقال الحـافظ ابن كثير في بيـان ماجرى بعد ذلك ومـاحصل من مواقف : واستهل جمادى الأولى - يعنـي من عام سبعمائة - والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخـر السلطان واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمـية رحمه الله تعالى في مسـتهل هذا الشهر، وكان يوم السـبت إلى نائب الشام في المرج [2] فثبتهم وقوَّى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء ، وتلا قوله تعالى

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٥ - ١٧ .

(٢) يعني بذلك الأفرم نائب السلطان في الشام وكان مرابطا مع الجيش في المرج .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٠] وبات وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثم عاد إلى دمشق ، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء ، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قُدِّر أنكم لستم حكام الشام ولاملوكه واستنصر أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ، وقوى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا إلى الشام ، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحا شديداً بعد أن كانوا يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

قال : ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد ، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو ، وقد اجتمع بالسلطان - يعني الناصر محمد بن قلاوون - والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج (١) .

وهذا موقف جهادي كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث أثر

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٦ - ١٧ .

بتوجيهاته السديدة القوية على سلطان مصر والشام ووزرائه حتى حملهم على تجهيز الجيش لملاقاة جيش التتار .

ولقد ضرب ابن تيمية بهذا مثلا عاليا للعالم الرباني المجاهد الذي طبق كل ماتعلمه من الإسلام حتى ماهو شاق على النفوس كالجهاد وإنكار المنكر .

وهكذا أظهر ابن تيمية صورة العالم الديني بأنه ذلك العالم الذي يبصِّر المسلمين بجميع واجباتهم ، ويسارع في نجدتهم وإنقاذهم من الكوارث والنكبات . . العالم الذي يبرز عند الفزع ويتوارى عند الطمع ، وليس ذلك العالم الذي يقبع في زاوية من زوايا المسجد أو المدرسة الدينية يدرِّس العلم ولايهمه أمر المسلمين . . وليس العالم الذي يتهالك على الدنيا وينافس عليها أهلها .

مقارنة بين الأحزاب والتتار :

عقد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية مقارنة جيدة بين الأحزاب الذين تحزبوا ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة النبوية وموقف الرسول ﷺ والصحابة منهم وبين التتار الذين تحزبوا مع الأعداء الآخرين ضد المسلمين في أواخر القرن السابع، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى :

ثم إنه تعالى قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٩] .

ثم ذكر قصة الأحزاب باختصار إلى أن قال في قصة التتار : وفي

هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة ، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم . ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين ، وهو بين الإقدام والإحجام ، مع قلة من بإزائهم من المسلمين . ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها . كما نزل أولئك بنواحي المدينة بازاء المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ماقيل - بضعا وعشرين ليلة . وقيل : عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه : يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى ، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة . واجتمع بهم الداعي ، وخاطبهم في هذه القضية . وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ماألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد ، وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة ، كما قال تعالى :﴿ فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تروها ﴾ .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد . على خلاف أكثر العادات . حتى كره أكثر الناس ذلك . وكنا نقول لهم : لاتكرهوا ذلك فإن لله فيه حكمة ورحمة . وكان ذلك من أعظم

الأسباب التي صرف الله به العدو : فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ماشاء الله . وهلك أيضا منهم من شاء الله . وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ماراأوا أنهم لاطاقة لهم معه بقتال . حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لابيض الله وجوهنا : أعدونا في الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لانأخذهم ، وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين،لو يصطادونهم ، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة .

وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ⑩ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] .

وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتي علو الشام ، وهو شمال الفرات . وقِبليّ الفرات. فزاغت الأبصار زيغا عظيما، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء ، لاسيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرُّب العدو، وتوجهه إلى دمشق. وظن الناس بالله الظنونا . هذا يظن أنه لايقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام . وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر . وهذا يظن أن أرض الشام مابقيت تسكن، ولابقيت تكون تحت مملكة الإسلام . وهذا يظن أنهم يأخذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ، ونحوها . وهذا - إذا أحسن

ظنه - قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين . ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم ، كما خرج ذلك العام . وهذا ظن خيارهم . وهذا يظن أن ماأخبره به أهل الآثار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة ، وخرافات لاغية. وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع ، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ، ليس له عقل يتفهم ، ولا لسان يتكلم .

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات ، وتقابلت عنده الارادات، لاسيما وهو لايفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب. ولايميز في التحديث بين المخطئ والصائب. ولايعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلا بها وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لايتفطن لوجوه دلالتها الخفية ، ولايهتدي لدفع مايتخيل أنه معارض لها في بادئ الرويَّة .

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسما بالاهتداء ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب: ١١] . ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذي يكفر به خطيئاتهم ، ويرفع به درجاتهم . وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ [الأحزاب: ١٢]. وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية ، والخلافة الرسالية ،وحزب الله المحدثون عنه. حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ، كما قال الله

تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إلى أن قال: فدلت هذه الآية - وهي قوله تعالى ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ - على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان: من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غرورًا لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو. فقالت طائفة منهم: لامقام لكم هنا، لكثرة العدو. فارجعوا إلى المدينة. وقيل: لامقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى دين الشرك. وقيل: لامقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: مابقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: مابقيت أرض الشام تسكن، بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز واليمن، وإما إلى مصر. وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة. كما قيلت في تلك. وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لامقام لكم هذه الأرض.

ونفي المقَام بها أبلغ من نفي المُقَام. وإن كانت قد قرئت بالضم

أيضا [١] . فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان ، فكيف يقيم به ؟

قال الله تعالى ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان في آطام المدينة - يارسول الله ، إن بيوتنا عورة . أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل .

- وأصل العورة : الخالي ، الذي يحتاج إلى حفظ وستر . يقال : أعور مجلسك إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو - .

وقال مجاهد والحسن : أيْ ضائعة نخشى عليها السراق . وقال قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلي العدو ، فلا نأمن على أهلنا، فائذن لنا أن نذهب إليها، لحفظ النساء والصبيان . قال الله تعالى ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة .

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة ، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: مامقصودنا إلا حفظ العيال، ومايمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك ، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لودنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد ، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟ قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا

(١) وهي قراءة حفص، وقد سار الشيخ في تفسير الآية على قراءة أخرى .

بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ [الأحزاب: ١٤] فأخبر أنه لو دُخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طُلِبت منهم الفتنة - وهي الافتتان عن الدين بالكفر، أو النفاق - لأعطوا الفتنة . ولجاءوها من غير توقف .

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم. ثم طلب منهم موافقته على ماهو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام- وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك . كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ، مابين ترك واجبات ، وفعل محرمات ، إما في حق الله ، وإما في حق العباد . كترك الصلاة ، وشرب الخمور ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين، وحريمهم . وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم ، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً** ﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديما وحديثا في هذه الغزوة . فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولايفر ، ثم فر منهزما لما اشتد الأمر .

ثم قال الله تعالى : ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لاينفع لا من الموت ولا من القتل، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ : « إذا وقع بأرض وأنتم بها

فلاتخرجوا فراراً منه » والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها . فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدا ، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره .

والتجربة تدل على مثل مادل عليه القرآن. فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم: بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم وقلّ في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولاقتل، بل الموت قلّ في البلد من حين خرج الفارون ،وهكذا سنة الله قديمًا وحديثا.

ثم قال تعالى :﴿ وإذًا لاتمتعون إلا قليلا﴾ يقول : لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون ، فإن الموت لابد منه، وقد حُكِي عن بعض الحمقى أنه قال : فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل : إنهم يمتعون بالفرار قليلا، لكنه ذكر أنه لامنفعة فيه أبدًا ، ثم ذكر جوابًا ثانيًا : أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل ، ثم ذكر جوابًا ثالثًا ،وهو أنَّ الفار يأتيه ما قُضِي له من المضرة، ويأتي الثابت ماقُضِي له من المسرة، فقال: **﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾** [الأحزاب: ١٧].

إلى أن قال : وقد ذكر أهل المغازي - منهم ابن اسحق- أن النبي

ﷺ قال في الخندق : « الآن نغزوهم ، ولايغزونا » فما غزت قريش ولاغطفان ، ولا اليهود المسلمين بعدها، بل غزاهم المسلمون : ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة . كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب مُن المغل وأصناف الترك ومن الفرس، والمستعربة ، والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام : الآن نغزوهم ولايغزونا ويتوب الله على من يشاء من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق ، بأن ينيبوا إلى ربهم، ويحسن ظنهم بالإسلام، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم. فقد أراهم الله من الآيات مافيه عبرة لأولي الأبصار، كما قال: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا: ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم ، ولم ينالوا خيرًا، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة ، كما كان همّ هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين ، فردهم الله بغيظهم ، حيث أصابهم من الثلج العظيم ، والبرد الشديد ، والريح العاصف، والجوع المزعج ، ما الله به عليم .

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة . وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة. وفيه لله حكمة وسر، فلاتكرهوه. فكان من حكمته أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم ، وهو

كان فيما قيل سبب رحيلهم . وابتُلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه . وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى ، يوم دخلتُ مصر عقيب العسكر واجتمعتُ بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ماألقاه ، فلما ثبَّت الله قلوب المسلمين صرف العدو، جزاء منه وبيانًا أن النية الخالصة و الهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار .

وذُكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباغضًا وتعاديًا ، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان، وبين اليهود . كما ذكر ذلك أهل المغازي ، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نَصِفَ فيه قصة الخندق ، بل من طالعها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازي ، مثل عروة بن الزبير ، والزهري ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموي ، ومحمد بن عائذ ، ومحمد بن اسحق ، والواقدي ، وغيرهم .

ثم تبقَّى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافا إلى عسكر حماة وحلب وماهنالك . وثبت المسلمون بازائهم، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة، وأذلهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار ، كما جرى في غزوة الخندق ، حيث قَتَل علي بن أبي طالب

رضي الله عنه فيهـا عمرو بن عبد ود العامـري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين .

كذلك صـار يتقرب بعض العـدو فيكسرهم المسلمـون، مع كون العدو المتقـرب أضعاف من قد سرى إليـه من المسلمين . وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم . وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات ، فـلم يدركوهم إلا عند عبـور الفرات . وبعـضهم في جزيرة فيها . فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم ، وخالطوهم وأصاب المسلمون بعضهم . وقيل : إنه غرق بعضهم .

وكان عـبورهم وخلو الشـام منهم في أوائل رجب [١]، بعد أن جرى مابين عبور قازان أوّلاً وهذا العبـور - رجفات ووقعات صغار، وعزمـنا على الذهاب إلى حمـاة غيـر مرة لأجل الغـزاة، لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الـذين بقوا ، وثبت بإزائهم المقدَّم الذي بحـماة ومن معـهم من العسكر ومن أتاه من دمـشق ، وعزموا عـلى لقائهم ونالوا أجراً عظيما . وقد قيل : إنهم كانوا عدة كمانات ، إما ثلاثة ، أو أربعة . فكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يُلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل « تيزين » و « الفوعة » و « معـرة مصرين » وغيرها مالم يكونوا وطئوه في العام الماضي .

وقيل : إن كـثيـراً من تلك البلاد كـان فيـهم ميل إليهـم بسبب الرفض، وأن عند بعـضهم فرامين منهم ، لكن هـؤلاء ظلمة ، ومن

---

(١) يعني من عام سبعمائة .

أعان ظالما بلي به ،والله تعالى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وقد ظاهروهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب، من أهل « سيس » والإفرنج . فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم وهي الحصون - ويقال للقرون : الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب وقد فتح الله تلك البلاد . ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنفتح أرض العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه [١].

فهذه مقارنة جيدة تدل على علم واسع وفهم عميق لكتاب الله تعالى وواقع المسلمين وواقع أعدائهم ، كما تدل على فهم شيخ الإسلام ابن تيمية لأسباب النصر وأسباب الخذلان .

ومن هذه المقارنة وماسبق ذكره من بيان مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث المسلمين مع التتار يتبين لنا أثر هذا العالم الرباني في نصر المسلمين على أعدائهم وتوجيه المسلمين إلى الاعتقاد الصحيح والاستقامة في أمور الجهاد .

معركة شقحب :

سار قازان ملك التتار بجيوشه من العراق ونزل على الفرات، وبعث أمامه قائده قطلوشاه إلى الشام في ثمانين ألف مقاتل، وخرجتِ العساكر المصرية إلى الشام مع الأمراء بيبرس وطغريل وكراي ولاجين ، ودخل بيبرس ومن معه دمشق في منتصف شعبان، ولبث يستحثُّ السلطان محمد بن قلاوون على الخروج .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٤٤٣ - ٤٦٦ .

وبلغ التتار تجمُّع للمسلمين عند حماة فبعثوا إليهم طائفة كثيرة من جيش ليقتطعوهم ، فتوجه إليهم أَسَنْدَمُرَ كُرْجي نائبُ طرابلس، وبَهادُرْ آص، وكُجْكُن ، وإغْزَلُّوا العادلي ، وتَمُر الساقي، ومحمد بن قَراسُنْقُر ، في ألف وخمسمائة فارس بمنزلة عُرْض - وهي بلد من أعمال حلب - في حادي عشر شعبان على غفلة فافترقوا أربع فرق، وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم ، وكان التتار - فيما يقال - أربعة آلاف ، وكان هؤلاء التتار قد هجموا قبل ذلك على التركمان ، فاستنقذ هؤلاء الأمراء التركمان وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار ، وهم نحو ستة آلاف أسير ، ولم يُفْقَد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أَنَص الجمدار المنصوري ومحمد ابن باشقرد الناصري ، وستة وخمسون من الأجناد، وأسروا من التتار مائة وثمانين [١] .

وهكذا انتصر ألف وخمسمائة من المسلمين على أربعة آلاف من التتار ، لَمَّا صبر المسلمون وكانوا يدًا واحدة على أعدائهم ، وإنما كان المسلمون يُخذَلون أمام التتار لشدة فزعهم وعدم صبرهم واختلاف قلوبهم ، وكانت هذه المعركة الصغيرة بدايةً جيدة لِلِّقاء الكبير الذي تم بعد ذلك في شقحب ، حيث كان لهذه المعركة أثر في تحطيم معنوية التتار .

وذكر الحافظ ابن كثير أن التتار وصلوا إلى بلاد الشام ، وأن جيش حلب وحماة تقهقرا إلى حمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتار

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/١٥٧ - ١٥٨ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤ .

فساروا إلى دمشق وانضموا إلى جيشها في المرج ، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فسادا ، وقَلِقَ الناس قلقا عظيما، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان محمد بن قلاوون ببقية الجيش المصري، وقال الناس : لاطاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم ، وتحدَّث الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا أنفسهم ، ونُودي بالبلد أن لايرحل أحد منه فسكن الناس ، وجلس القضاة بالجامع وحلَّفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال (١) .

وهذا موقف جهادي مشكور لهؤلاء الأمراء الذين ثبَّتوا المسلمين وشجعوهم على القتال ولم يسمعوا لإرجاف المرجفين وكذلك قام القضاة بموقف جيد حينما حلَّفوا الفقهاء والعامة على الثبات والجهاد.

قال الحافظ ابن كثير : وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في « القطيعة » فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يَحْلِف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقا لاتعليقا ، وكان يتأول أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ [الحج: ٦٠] (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥ .

وهذا موقف جهادي رائع لشيخ الإســلام ابن تيمية ، حيث سعى لتثبيت الجيش الإسلامي وتقوية عزائم أفراده، وذلك بخروجه أوّلا إلى الجيش القادم من حــماة وإعلامهم بما عزم عليــه المجاهدون في دمشق من الثبات الذي وثقــوه بالحلف ، ثم بقيامه ثانيــا بالحلف أمام الأمراء والعامة بحصول النصــر للمسلمين في تلك المعركة ، وذلك راجع إلى ثقته بنصر الله تعالى حينما تتحقق عوامل النصر من المجاهدين ، وقد لاحظ في تلك المرة تحــقق تلك العــوامل، كـما أنه راجع إلى غــزارة علمه حيث تأول قول الله تعالى ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ وقد بغى التتــار كثيراً على المسلمين وبالغوا في العدوان عليهم .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان حال المسلمين آنذاك في ترددهم في قتال التــتار : وقد تكلم الناس في كيــفية قتــال هؤلاء التتار، من أيٍّ قبيلٍ هو ! فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيــبون على المسلمين ماهم متلبِّــسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبــسون بماهو أعظم منه بأضعــاف مضاعفة، فــتفطن العلمــاء والناس لذلك، وكــان يقول للنــاس: إذا رأيتمــوني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فتشجع الناس في قتال التتار وقوِيَتْ قلوبهم ونيَّاتهم ولله الحمد (١) .

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥ .

وهذا مثل من رسوخ علم ابن تيمية حيث أبان للناس انطباق صفة الخوارج على التتــار الذين أظهروا الإسلام ولـم يطبقـوا منه إلا قليلا، كما أن في هذا الخبر مثلا على ثقة المسلمين البالغة بابن تيمية سواء في ذلك أهل العلم أو العامة ، وبهذه الثقة التي تكونت من اتصافه بالعلم النافع والعمل الصالح اسـتطاع أن يؤثر على المسلمين وأن يقودهم إلى الجهاد .

لقد كان لهذه الشبهة أثر في هزيمة المـسلمين في معركتهم السابقة مع التــتــار ، حيث تخــاذل المسلمــون في قــتــالهم لكونهم يظهــرون الإسلام، وكان على أثر ذلك اسـتيلاء التتار على بلاد الشام ومــاقاموا به من قــتل الآمنين ونهب أمــوال المسلمين ، فلمــا قيض الله تعــالى للمسلــمين في ذلك الزمن عالما جليـلا يكشف لهم الشبـهات ويُجَلِّي لهم الحقــائق ويدفعهم إلى اليقين من ســلامة الاتجاه قويت مــعنويتهم وتوحد هدفهم وأقدموا على الجهاد بنفوس مطمئنة وعزائم قوية .

هذا وقد كان جيش مصر وصل إلى الشام بقيادة بعض الأمراء ثم وصل السلطان قبل وصول التتار إلــى دمشق ففرح بذلك المسلمون في الشام ، وقد ذكر الحافظ ابن كثـير أن عسكر الشام ندب شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن يسير إلى السلطان يسـتحثه على السير إلى دمشق فســار إليه فحثَّه على المجيء إلى دمـشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعا ، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القــتال ، فقــال له الشـيخ : السُّنَّة أن يقف الرجل تحت راية قــومه، ونحن من جـيش الشــام لانقف إلا معــهم ، وحــرض السلطان على

القتـال وبشره بالنصر ، وجـعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة ، فيـقول له الأمراء : قل إن شاء الله، فيـقول : إن شـاء الله تحقـيقـا لاتعليقـا ، وأفتى الناس بالفطـر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضًا ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده لِيُعْلمهم أن إفطارهم - ليـتقووا على القتال- أفضل فيأكل الناس ، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ « إنكم ملاقو العدو غدا، والفطر أقوى لكم » فـعزم عليهم في الفطر عام الفـتح كما في حديث أبي سعيد الخدري [١] .

وقد كان وصـول السلطان في يوم السبت ثاني شهر رمـضان عام اثنين وسبعمـائة ، وعند لقاء الأمراء به ورد إليهم الخبـر بوصول التتار فلبسوا السلاح واتفـقوا على قتال التتار بشقـحب تحت جبل غباغب، وعند وصولهم إلى هذا المكان صفوا جيشهم ، فصف السلطان محمد ابن قـلاوون في القلب وبجـانبـه الخليفـة المسـتكفي بالله ، ومـشى السلطان والخليفـة ومعهـما القراء يتلون القـرآن ويحثون على الجـهاد ويشوّقـون إلى الجنة ، وصار الخـليفة يقـول : يامجـاهدون لاتنظروا لسلطانكم وقاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم، والناس في بكاء شديد .

وزحـفت كتـائب التتـار كقطع الـليل،وذلك بعد الظهـر من يوم السبت ثاني رمـضان المذكور،وحمل قطلوشـاه قائد التتار على مـيمنة الجيش الإسـلامي فثبـتوا لهم،وقُتِـل في ذلك الهجوم عـدد من أمراء

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٧ .

المسلمين ونحو الألف من فرسانـهم فلما وقع ذلك أدركهم الأمراء من القلب والميسرة وصاح سـلاَّر : هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبـرس والمماليك الـبُرجيـة فأتوه دفـعة واحـدة فأخذهم وصـدم بهم العدو،وقصد مُـقدَّم التتار قطلوشاه ، وتقدم عن الميـمنة حتى أخذت راحة .

وأبلى سلار في ذلك اليوم وبيبرس بلاء حسنا، وكانا المقدَّمان في أمراء مصر ، فلما رأى باقي الأمراء ذلك منهم ألْقَوا نفوسهم للموت، واقتحموا القتال وكان لسـلار وبيبرس في ذلك اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين ، رحمهـما الله تعالى ، واستـمروا في القتال حتى كـشفوا التتار عن المسلمين .

وجاءت طائفة من التتار لنجدة قطلوشاه ، ووقفوا في وجه سلار وبيـبرس ومن مـعهـمـا فخـرج من عسكر الـسلطان عدد من القـادة والمماليك السلطانيـة وأردفوا سلار وبيبـرس وقاتلوا أشد القتـال حتى أزاحوهم عن مـواقفهم ، واستـمر القتال بين المسلمين والتـتار إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال في المساء .

ومال قطلوشـاه بمن معه إلى جـبل قريب منه، وصعـد عليه وفي نفســه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهـزمين، فلما صعـد الجبل رأى السهل والوعر كلَّه عساكر، والميســرة السلطانية ثابتةٌ وأعلامُها تخفق ، فبُهِتَ وتحير ،واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه .

أما القائـد الآخر بولاي فإنه انهزم ومـعه عشرون ألفا مـن التتار وفروا هاربين .

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل، وتلاحق بهم المنهزمون شيئًا بعد شيء على صوت الطبول السلطانية، وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار ، وصار سلار وبيبرس وقبجق والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ ، ووقفَ كل أمير في مصافِّه وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس .

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ، ونزلوا مشاةً وفرسانًا وقاتلوا العساكر ، فبَرَزَت المماليك السلطانية بمقدَّميها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا في قتالهم عملاً عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضًا بقتال مَنْ في جهتهم يتناوبون القتال أميرًا بعد أمير ، وألَحَّتِ المماليك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية مالايوصف ، حتى إن بعضهم قُتِل تحته الثلاثة من الخيل .

ومازال القتال دائرًا حتى انتصف نهار الأحد ، فصعد قطلوشاه الجبل بجيشه وقد اشتد عطشهم ، واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان وعرَّفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية وأنهم في شدة من العطش ، فاقتضى الرأي أن يفرِّج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقفيتهم، فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد، وساروا إلى النهر فاقتحموه ، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى

حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيوف ومرُّوا في أثرهم قتلاً وأسرًا إلى وقت العصر .

وعاد المجاهدون إلى السلطان وعرَّفوه بهذا النصر العظيم وبات السلطان لَيْلَتَه و أصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق ، فسار إليها في عالم عظيم لايحصيهم إلا الله تعالى وهم يضجُّون بالدعاء والهناء والشكر لله تعالى على هذه المنَّة .

أما المنهزمون من التتار فإن كثيرًا منهم قُتلوا على يد الفرَق التي تَبِعَتْهم من الجيش وكذلك من رجال البادية وعامة المسلمين [1] .

وهكذا تم هذا الانتصار الحاسم للمسلمين على التتار بعد عناء شديد وجهاد مرير ، ولم يتجرأ التتار بعدها على حرب دولة المسلمين في الشام ومصر ، وكان وقع الهزيمة شديدًا على ملك التتار قازان حيث كان قد انتخب لتلك المعركة أفضل رجاله .

* * *

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/١٥٧ - ١٦٣ .

فهرس الجزأين الخامس عشر والسادس عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- إنصافه الأعراب من بعض بني أميه	٩٣
- وصبته عُمًّا له بالتقوى والعدل	٩٤
- خبره مع المرأة التي فرض لبناتها	٩٩
- إنصافه الذميين من أهل نجران	١٠٣
- إنصافه الذميين من أهل قبرص	١٠٥
- إنصافه أحد المظلومين من اليمن	١٠٦
- سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز	١٠٦
- خبره مع الخوارج	١٠٨
- **جهوده في الدعوة والإصلاح**	١١٤
- من توجيهاته في آداب الصحبة	١١٤
- من تذكيره بالآخرة	١١٨
- من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة	١١٩
- إنكاره العصبية القبلية	١٢١
- اهتمامه بشكر النعمة	١٢٤
- اهتمامه بتعليم أهل البادية	١٢٥
- اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام	١٢٥
- اهتمامه بإصلاح المجتمع	١٢٨
- إباحته المراعي العامة للأمة	١٣١
- توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة	١٣٢
- إبطاله سب علي على المنابر	١٣٣
- اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عمن أسلم	١٣٣
- إحياؤه لسنة العطاء	١٣٦

الموضوع	الصفحة
- إغناؤه المحتاجين عن المسألة	١٣٨
- اهتمامه بدفع المهور من بيت المال	١٣٩
- جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع	١٣٩
- تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت	١٤٠
- اهتمامه بالإصلاح بين الناس	١٤٢
- نماذج من مواعظه وحكَمه	١٤٣
- اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك	١٤٥
- كتابه لبعض عُمَّاله في التزهيد في الدنيا	١٤٦
- وصيته للقضاة	١٤٨
- حثه على التقوى	١٤٩
- كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم	١٥٠
- من خطبه في الزهد	١٥٢
- موعظة له في التوكل والعفة	١٥٣
- خطبة له وجيزه بليغة	١٥٣
- آخر خطبة خطبها	١٥٥
- فهمه لشمول العبادة	١٥٦
- تعزيته البليغة لأهل صديقه	١٥٧
- مثل من صبره ويقينه	١٥٨
- جوابه على من قال أبقاك الله	١٥٩
- من مواعظه البليغة	١٦٠
- موعظته لمن سأله شيئا من الدنيا	١٦١
- نماذج من أدبه وحكمته	١٦٢

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة